محمد الرحبي

حداثة الكتابة

نبش في ذاكرة الثقافة المحرضة والكتاب والشعراء







حداثة الكتابة

ولعل هذا الكتاب بمواضيعه الثرية وربما غير المكتملة في مضمونها، نظرا لصعوبة البحث عن المراجع في ظل مشاغل ربما تكون الزامية في هذا العصر اصبح على الانسان ان تكون قدره الاول والاخيرمن اجل العيش في حياة كريمة، ولكن رغم ذلك فان من ارتبطت حياته بالكتابة والتاليف هذه المهنة السهلة المسلية والمبكية في آن لايمكن ان تقف العقبات والمصاعب ومشاغل الحياة امامه وانما يتجاوزها بالاستمرارفي عملية البحث واكتشاف عالم الابداع الجميل. الابداع الاثير بجمالياته وعوالمه الذي مافتيء ياسر كل من يحاول الاقتراب منه ويجعله صديقا ورفيقا، العشق الازلي والابدي للانسان الواعي، المرأة والرجل الطفل والكهل، وكل من يعشق الحياة. هكذا هكذا اذن يأتي كتابي هذا وسط فوضى من المغامرة لكي اقبل التحدي من جديد، والمراهنة على شروط الكتابة، بلغتها واسلوبها، بكلماتها ومعانيها، لغة جديدة قادمة من عوالم وسحر الابداع.

ISBN 978-614-404-403-2

9 786144 044032

محمد الرحبي

حداثة الكتابة

نَبْشٌ في ذاكرة الثّقافة المحرّضة والكتّاب والشّعراء



مُحَمّد الرّحبي

حداثة الكتابة

نَبْشٌ في ذاكِرة الثّقافة المحرّضة والكتّاب والشّعراء



ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffiusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت ـ لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس. 9611-659150

ISBN 978-614-404-403-2

الطبعة الأولى 2013

المحتويات

مقدمة الطبعة الأولى
الخطاب الثقافي الجديد

يشهد الخطاب الأدبي والثقافي منذ سنوات، تحولات جذرية في اللغة، وفي أسلوب الكتابة، نتيجة للمدارس الأدبية التي استجدت، كالحداثة وغيرها، من هنا كان لابد من عمل يواكب كل هذه التحولات الثقافية والفكرية، التي مازالت تعيش في جدل غير عادي من قبل المهتمين بتحليل الخطاب الثقافي الجديد. وربما هذا الكتاب، من شأنه أن يترك جوانب مضيئة في حياة الكاتب، أو أي إنسان آخر يؤثر ويتأثر بما حوله من متغيرات دراماتيكية، وهو لا يدعّي بمادته المتواضعة إنتاج أو تبني فلسفة تنظيرية متميزة، وإنما هو إضافة جديدة، من أجل تفعيل الحركة الأدبية والثقافية وتنشيطها في ظل تعدد المؤسسات الثقافية والإعلامية وتنوعها، وغيرها من الوسائل التي لها تأثير في مسار الحركة الثقافية والإبداعية، وسوف يلاحظ القارىء لهذا الكتاب، التنوع في المواضيع. حيث إن غالبيتها إما تناقش مجالًا أدبيًا وثقافيًا معينًا، وإما تقدم قراءة في مجال الشعر، والقصة. وذلك تمشيًا مع الخط والنهج الحداثي الأكثر ديناميكية، الذي يحاول أن يؤسس لنفسه خطًا معاكسًا

للمفهوم الكلاسيكي، سواء كان ذلك من حيث اللغة والأسلوب، أو تقنية الكتابة ذاتها. وهي نهجية ربما استطاعت إلى حد ما إحداث تحول في خارطة الأدب والثقافة العربية، حيث على ضوء ذلك التحرر، تفجرت طاقات الإبداع، وتلاقت الثقافة العربية فيما بينها وفي مختلف المجالات: شعرًا وراويةً وقصصًا ومسرحًا. وما هذا العمل إلا جزء من تلك التحولات الإبداعية التي أحدثتها ثورة الحداثة. كما أن الكتاب يأتي والثقافة العربية تعيش في وضع مأزوم، ووضع ربما قد لا يساعد على خلق بنية جديدة من شأنها أن تعيد المجد الذهبي إلى الأدب المعاصر الذي بدأ مسيرة تألقه في الخمسينيات والستينيات. تلك الفترة التي كان لها دورها المؤثر وتأثيرها المباشر في صحوة الفكر العربي وإيقاظ همم المبدعين من الخليج إلى المحيط. تلك كانت معجزة التاريخ وتلك كانت مرحلة نبوغ العقل العربي، ولعل هذا العصر الذي يموج بتناقضاته، وبتنوعه المعرفي واختراعاته العملية، قد لا يتيح التفرغ لمسائل الإبداع، وقد لا يتيح أيضًا التفرغ لعملية المطالعة والقراءة والكتابة.. لأن مساحة الوقت أصبحت ضئيلة بالنسبة إلى المثقف العربي، في خضم هذا الكم الهائل من الاختراعات العلمية، كما أن المناخ الذي يساعد المثقف على الإبداع والمطالعة والكتابة أصبح معدومًا الآن، لأن هذا المناخ أصبح محاطًا بسياج أمني، إضافة إلى الأوضاع المالية والظروف الاجتماعية والبيئية التي لها دور مؤثر في ما يتعلق بالاستقرار النفسي للمبدع أو المثقف العربي

بصورة عامة. ونتيجة لذلك، نرى بأنه لابد من إصلاح ذلك الخلل، وإعطاء المثقف العربي والثقافة العربية دورًا مميزًا وتسهيل مهمته حتى يستطيع تأدية رسالته التي هي في الأساس تهدف إلى خدمة وطنه وتنوير مجتمعه، وعندئذ تنفتح كل المسارات من أجل النهوض بحركة الثقافة العربية والمضي بها على مراحل متقدمة من الوعي والتطور، كما أنني أرجو أن تكون هناك إصدارات جديدة في المستقبل، تضيف إلى التجربة السابقة أطرًا ومضامين جديدة وروافد إبداعية تساهم في تطوير الحركة الأدبية والثقافية التي تعيش اليوم أوج عطائها وتدفقها المعنوي والمعرفي. . .آملًا أن يتحقق ذلك في المستقبل القريب.

مقدمة الطبعة الثانية

يظل سؤال الثقافة قائمًا ومحرضًا على الدوام، حتى تتحقق الأحلام الكبيرة والأمنيات. فالابداع الجميل والأدب والشعر والقصة والرواية وغيرها من الفروع والألوان الابداعية، كل همها دائمًا أن تكتشف بأسلوبها وسحرها العوالم المغيّبة، عن المتلقي. ولذلك يأتي هذا الكتاب محملًا بثقافة تحريضية ومواضيع تتنوع في طرحها في محاولة لتقديم أسلوب ولغة جديدة ما فتئت، تبحث لها عن هدف وتبحث لها عن مسار، همها الأول والأخير إثارة الأسئلة وطرح السؤال الأزلي لأهمية الابداع وأهمية الثقافة في حياة الشعوب. وأهمية الشعر والفن والموسيقى، ولا يمكن لمثل هذه الشروط أن تتحق إذا لم تجد من يثيرها على الدوام، من خلال كتّاب ومؤلفين حقيقيين وواعدين تكون من ضمن أهدافهم المثابرة على التأليف والمثابرة على طرح المواضيع الجديدة والحديثة التي تلبي حاجة شريحة واسعة من الجماهير المتعطشة إلى الثقافة والابداع الجميل. ولعل هذا الكتاب بمواضيعه الثرية وربما غير المكتملة في مضمونها، نظرًا إلى صعوبة البحث عن المراجع في ظل مشاغل ربما تكون إلزامية في هذا العصر، الذي أصبح على الإنسان أن يكون قدره الأول والأخير العيش في حياة

كريمة. ولكن بالرغم من ذلك فإن من ارتبطت حياته بالكتابة والتأليف هذه المهنة السهلة المسلية والمبكية في آن لا يمكن أن تقف العقبات والمصاعب ومشاغل الحياة أمامه وإنما يتجاوزها بالاستمرار في عملية البحث واكتشاف عالم الابداع الجميل، الابداع الأثير بجمالياته وعوالمة الذي مافتئ يأسر كل من يحاول الاقتراب منه وجعله صديقًا ورفيقًا، العشق الأزلي والأبدي للإنسان الواعي، المرأة والرجل، الطفل والكهل. وكل من يعشق الحياة. هكذا هكذا إذن يأتي كتابي هذا وسط فوضى من المغامرة لكي أقبل التحدي من جديد، والمراهنة على شروط الكتابة بلغتها وأسلوبها، بكلماتها ومعانيها. لغة جديدة قادمة من عوالم الابداع وسحره، ولئن تقترب هذه الكتابة وهذا الكتاب وسط هول الفوضى ومغامرة التأليف والكتابة، فإنما ذلك يأتي لمواصلة الرحلة التي بدأتها مع التأليف منذ صدور كتابي هذا في العام 1997م والذي أكمله الآن في طبعته الثانية هذه بمواضيع إضافية جديدة لعلها تحقق شيئًا من حلمي الذي تمنيت أن أحققه بعد صدور الكتاب في طبعته الأولى.

المؤلف

التجربة الشعرية العربية
إشكاليات الحداثة والأصالة

تأتي التجربة الشعرية، ضمن عوامل مؤثرة، بحكم ارتباط الشعر، بمختلف الظروف الاجتماعية والتاريخية والسياسية وهي عوامل لها أهميتها في زيادة الوعي الثقافي للشاعر،حيث مثلت التجربة، بداية مهمة على صعيد بلورة المفهوم الجديد للشعر، أو كما يقول الشاعر عبد العزيز المقالح: «لقد كانت التجربة الشعرية الجديدة استجابة لتطور حتمي في الواقع العربي المعاصر. وكانت نتاجًا نابعًا من واقع التحولات السياسية والاجتماعية، ولم تكن ولادتها مرتبطة بأي قسر أو ترويج أو نسخ للأنماط السائدة في بلدان (ما وراء البحار) وكانت القصيدة الجديدة في بداية ظهورها غنية بمضامينها المعاصرة وبأساليب من التعبير تبتعد عن الحذلقة والتصنع مستعيدة قدر الامكان من التطورات المحلية والدولية التي أعقبت الحرب العالمية الثانية». ويقول أيضًا: «ما يجعلها تصل إلى المكانة التي تمناها لها الدكتور حسين مروة حين أراد أن تصبح ثورة تجتاح الأشكال الشعرية التقليدية بعد أن أصبحت ـ أي تلك الأشكال ـ عاجزة عن استيعاب تجارب العصر المربكة

المعقدة»[1]. ولانعتقد في الواقع أن مثل هذا الكلام الذي أشار إليه الشاعرالمقالح يعد إلغاء للإرث الشعري الذي تاسس منذ قرون. بقدر ما هو توجه يؤسس لمستقبل ثقافي مشرق للقصيدة العربية، فالتراث الشعري باعتباره النموذج المؤسس لأي خطاب أدبي، لا يمكن في الواقع تجاهله، نظرًا إلى ما يؤسسه من ثوابت راسخة في بناء القصيدة العربية، وقد ظل الشعرالحديث يعيش وسط إشكالية محصورة بين الشعر العربي الكلاسيكي والشعر الأوروبي. هذه الإشكالية، التي مازالت تعيش في جدل على صعيد المسار التاريخي، للتوجه الحقيقي للشعر العربي الحديث، لكون الشعر الحديث أخذ يتمازج بين ثقافة جديدة خارجة على القيود الكلاسيكية المعروفة، وبين ثقافة أوروبية متحررة. تقول نازك الملائكة: «وهؤلاء المتعصبون ما زالوا يرددون قولًا مضمونه أن الشعر الحر ولد غير شرعي فلا علاقة له بالشعر العربي». وأنا قد أثبت بالأدلة العروضية في هذا الكتاب أي كتاب قضايا الشعرالمعاصر أن ذلك الرأي باطل فإن شعرنا الجديد مستمد من عروض الخليل بن أحمد، قائم على أساسه، بحيث يمكن أن نستخرج من كل قصيدة حرة مجموعة قصائد خليلية وافرة ومجزوءة ومشطورة وتستشهد الشاعرة نازك الملائكة بأبيات للشاعر محمود درويش من البحر المتقارب: وفوق سطوح الزوابع كل كلام جميل وكل لقاء وداع وما بيننا غير هذا اللقاء وما بيننا غير هذا الوداع)[2]. وبالرغم من تلك الملاحظة، حول أهمية الحفاظ على هوية القصيدة بشكلها الكلاسيكي المعروف،

إلا أن الإشكالية بشكل عام ليست محصورة، في الجانب التراثي أو الخروج على الإرث الأدبي الكلاسيكي، واتباع ثقافة غريبة وإنما المشكلة تكمن في التراجع عن ترجمة الأهداف وفلسفة المشروع الحداثوي، إلى واقع يستطيع أن يعطي الصورة الإبداعية بروزًا واستقلالية. ولعل المؤسسات الثقافية، لها دور رئيسي سواء كانت موجودة أو غائبة عن الساحة، لها دور فيما يتعلق بالتذبذب والتراجع، أو في عملية الصعود والارتقاء الأدبي والثقافي، سواء كان ذلك لغياب القاعدة التأسيسية أو تقليص الدور الذي يفترض أن تقوم به كمؤسسات على صعيد تحريك المناخ الثقافي، ورفده بمقومات وعناصر من شأنها أن تعطي الساحة الأدبية والثقافية دفعة قوية حتى يمكنها من تأسيس أدب ذي خلق وإبداع. وإذا ما تحقق هذا الدور بالفعل فمن الممكن عندئذ أن نعيد طرح المشروع الحداثي، سواء كان ذلك من خلال المؤسسات الثقافية أو الندوات أو من خلال الصحافة. علاوة على ذلك فإن تطوير المشروع الحداثوي، يحتاج في الواقع إلى آلية، وإلى بنية صلبة من شأنها أن تدفع هذا الإنجاز إلى واقع ملموس. فالحداثة باعتبارها موقفًا تاريخيًا «دراماتيكيًا» لا تعني الخروج على المفاهيم والأطر، التي تبناها الأدب الكلاسيكي بشكل عام، وقصيدة «القبيلة» بشكل خاص وإنما هي إيجاد لغة رصينة، وتعمق في وصف الحالة الشعرية والجمالية، حتى تتواكب مع الخطاب الثقافي السائد الآن. فأي عمل تجديدي في الجانب الأدبي يجب أن يكون مبنيًا على أطر وقواعد، من شأنها أن تعطي

التجربة الإبداعية، أفقًا ومرونه أكثر فاعلية في البناء، وفي الأسلوب، وفي اللغة، والمضمون، وفي العمل الفكري بصورة عامة. فالتجربة أي تجربة سواء كانت على المستوى الثقافي أو الأدبي أو الاجتماعي، لا يمكن أن تتحقق إذا لم تكن هناك دراسة وأسس صلبة تقوم عليها، وهكذا العمل الإبداعي، إذا لم يقم على قواعد صلبة، وإذا لم يكن هناك إرث أدبي يمكن الاستناد إليه فإنه لا يمكن أن ينجح، لأن المسألة مسألة وقت وتجربة طويلة، يقول محمد الأسعد: «هكذا يبرز أمامنا أول أساسيات الثقافة الموروثة، وهو الثبات في العلاقة بين الوعي ومعطيات التجربة، فملكات الوعي من خيال وذاكرة وإدراك ثابتة بثبوت الشخصية الإنسانية ومحتويات الوعي لم تعد مما يمكن صياغته مجددًا أو وضعه موضع التساؤل، لأنها مقررة سلفًا في الفكرة المثالية وهي ليست علاقة بمعطيات تجربة متغيرة أيضًا»[3].

والمبدعون الكبار في الواقع الذين نرى نتاجاتهم وإصداراتهم بين فترة وأخرى سواء على مستوى الإصدارات من الكتب التي تلفظها المطابع بشكل يومي ومتواصل، أو عن طريق الإعلانات في الدوريات الثقافية، لم ينالوا الشهرة بمجرد إصدارهم كتابًا معينًا، وإنما يعود ذلك إلى المستوى الرفيع الذي وصلوا إليه فكرًا، وثقافة، وأسلوبًا بالإضافة إلى التجارب الحياتية والاجتماعية، بمختلف أشكالها وتنوعاتها. حيث نجد أنه من السهل على بعض المثقفين والنقاد أن ينتقدوا أي حدث جديد في الأدب، أو

أي مذهب أدبي كما هي الحال الآن بالنسبة إلى الحداثة. ولذلك نرى أن الإشكالية الجديدة والمعوقات التي يواجهها الشعر العربي، هي في الواقع لا تكمن في الخروج على وحدة الوزن والقافية التي تنبتها القصيدة الكلاسيكية عبر حقبة طويلة من الزمن، وإنما تكمن في أمور شكلية، في المضمون والاتجاه، والمعنى. نظرًا إلى تنوع واختلاف مدارس الشعر. («فنجد الشعر اللبناني على سبيل المثال متأثرًا بالاتجاه السريالي ورواده مثل «بريتون» «إيلوار بوسكيه». كما نجد الشعر العراقي في المقابل متأثرًا بالشعر الإنجليزي، والأمريكي») يقول الشاعراللبناني بول شاؤول: «إن الشعر العربي تحرك منذ بداية النهضة في ثلاثة نصوص: النص التقليدي الكلاسيكي الذي تجسد في شعراء مثل أحمد شوقي، الجواهري، البارودي، ونص الرواد ومثله السياب، البياتي، صلاح عبد الصبور، ونص الستيني الذي حاول أن يخترق اللغة الشعرية السائدة ضمن معادلات أخرى غير المعادلات الآتية ضمن القصيدة العمودية وهذا يمثله «جبران». لذلك فإن المفارقات الجديدة في بنية النص الشعري جاءت نتيجة لظروف مر بها الشعر العربي الحديث، الأمر الذي كان له الأثر الفعال في تغيير هوية الشعر الكلاسيكي بناء وإيقاعًا. ولكن هذا لا يغير بطبيعة الحالة من توجه بعض الشعراء الذين مازالوا يتبنون القصيدة الكلاسيكية أن ينحرفوا نحو مسار آخر. فمؤثرات الحداثة في الواقع، وتطوير العناصر الأدبية من شعر، وقصة، ورواية، هو أمر ضروري، نظرًا إلى التقدم الثقافي

والفكري، ولذلك فإن الظروف التاريخية التي يمر بها النص الأدبي في الوقت الراهن، لم تأت في الواقع من فراغ على حساب الإرث الأدبي الكلاسيكي العظيم، وإنما نتيجة تغاير اجتماعي وثقافي أدى بدوره إلى ولادة، أكثر من نص إبداعي في خارطة الأدب والثقافة، وكما يقول الكاتب محمد الأسعد أيضًا: «لقد ولدت صيغة التجديد على قاعدة تغايراجتماعي نهضوي، بدا يحتل مساحة الحياة العربية منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر باحثًا عن تكامل ما في أفق ثقافي اجتماعي ـ سياسي. ولم تكن هذه القاعدة التي مثلت هاجسًا تحرريًا إلا المبدأ ومن ثم فقد كان لهذا المبدأ أن يتغاير فيمابعد باحثًا عن تكامله سواء في الفكر أو الأدب أو الاجتماع أو السياسة على قاعدة التشكلات الجديدة التي بدأت تتخذها بنية المجتمعات العربية، في صراع هذه التشكلات أحيانًا أو في توافق معها في أحيان أخرى»[4]. وحينما يكون لمفهوم التجديد في الشعر العربي كل هذا التمازج اللغوي والأدبي والفكري، فإن مفهوم الحداثة ينصب أساسًا في هذا الاتجاه،وكما يقول بيتر تشايلدز: «الحداثة مصطلح جدلي ولاينبغي الحديث عنها دون الالمام بالمناقشات الأدبية والتاريخية والسياسية التي رافقت استخدام هذا المصطلح. وأحد جوانب الكتابة الحداثية التي تدهش القراء هو الطريقة التي قامت بها الروايات والقصص والقصائد بغمس القراء في عالم غير مألوف مع القليل من التوجيه والديباجات والوصف التي قدمها الكتاب الأكثر واقعية مثل جين أوستن وتشارلز ديكنز

وجورج إليوت. وبعبارة أخرى، تغمسس الكتابة الحداثية القارىء في مشهد فكري صعب ومربك لايمكن فهمه على الفور ولكن يجب نقله للعقل عن طريق رسمه من قبل القارىء ليتم فهم حدوده ومعانيه»[5].

الهوامش

(1) د. عبد العزيز المقالح، **أزمة القصيدة العربية المعاصرة: مشروع تساؤل**.
(2) نازك الملائكة، **قضايا معاصرة**.
(3) محمد الأسعد، **بحثًا عن الحداثة** ص7، 8.
(4) محمد الأسعد، **بحثًا عن الحداثة** ص7، 8.
(5) بيتر تشايلدز، **الحداثة**، ص13

التواصل الثقافي العربي والمشروع التراثي

الحديث عن التواصل الثقافي بصفة عامة والتراث بصفة خاصة أصبح مهمًا في ظل المعطيات الجديدة التي تعيشها الساحة الثقافية العربية، خصوصًا في هذا الوقت بالذات، الذي يفترض أن يكون المشروع الثقافي العربي، قد حقق بعض الإنجازات الرائعة على صعيد الخلق والإبداع، لكن الذي نراه أمامنا الآن لا يعبر بأي حال من الأحوال عن نشاط أو تطور ملموس عبر المسار الأدبي والثقافي، في الوقت الذي أصبحت الثقافة تمثل منعطفًا هامًا ليس على الصعيد العربي فحسب وإنما على الصعيد العالمي. لذلك عندما وقع اختياري على موضوع التواصل الثقافي العربي ودور التراث أردت من خلال ذلك أن أعيد بقايا أشلاء العمل الثقافي العربي، من خلال الذاكرة التي مازال يلفها الغموض والتيه والتي مازالت أيضًا تبحث عن أسس حقيقية للكتابة - نعم - وعن لغة وهوية لها القدرة على تأسيس كتابة التاريخ وتاريخ الأدب والثقافة العربية. فالثقافة في ذاتها ليست مظهرية وليست وصاية على أحد، كما أنها لا تتعامل مع الدعاية الإعلامية والإعلانية، وإنما لها

مسارها المؤثر. ولذلك فإن المفارقات الجديدة والتحولات العالمية ذات المؤثرات الثقافية والاجتماعية،تحتم علينا أن تكون لدينا الواقعية لتقديم الجديد في صياغة الخطاب الثقافي العربي وكل ما من شأنه الارتقاء بالثقافة العربية إلى مستوى الطموحات والآمال. ذلك أن الطموح الحقيقي إلى فتح آمال جديدة لغد ثقافي مشرق تبدو ملامحه ليست قريبة كما نتصوره رغم تزايد وتنوع الكتابات التي نقرأها في الصحافة والدوريات الثقافية فمازال النضوب الثقافي على أشده ومازال التفاعل الإبداعي العربي الحقيقي، بعيدًا جدًا اللهم إلا من بعض الكتابات الهامشية رغم أنها لا تضيف أي جديد أيضًا بقدر ماهي أشبه بدعاية إعلانية لا أكثر. ولعل مشروع التواصل الثقافي العربي، من شأنه أن يؤسس بنية قوية في إثراء العمل الابداعي، ومن شأنه أن يعطي دفعة قوية على صعيد تبني موقف هدفه تقويم العمل الابداعي والثقافي عبر جميع المراحل والفصول والأزمنة، حيث إن هذا الموقف من شأنه أن يؤسس قاعدة جيدة في العمل الثقافي العربي. وعندما نناقش مسألة التواصل الثقافي من خلال موضوعنا هذا، فإنما نريد من خلال ذلك إيجاد نوع من التقارب العربي، مما يساهم في إثراء الحركة الإبداعية في جميع المجالات، في المقالة، في الشعر، والقصة، والرواية، والمسرح، والسينما، والفن التشكيلي، إننا نطمح إلى إيجاد هوية للتقارب العربي شعاره الاستمرار والتواصل والتطوير المستمر. وحول مسألة التواصل الثقافي العربي نستطيع أن نقول من دون تردد إن تطور الثقافة لا

يمكن أن يأتي من فراغ، فالثقافة عبارة عن كيان قائم في ذاته ولها استقلالية خاصة، وما دامت هي كذلك فإن التواصل الثقافي العربي مهم وضروري، سواء كان ذلك من خلال الندوات أو من خلال المهرجانات الثقافية ومعارض الكتب والتواصل بين المؤسسات الثقافية في كل بلد عربي، هذه العوامل مكونة لمسار التوجه الفكري الحقيقي، ومازلنا نعتقد أن المناخ الثقافي العربي مازال يتجدد كل يوم وأن الكتابات الجادة والواعية والمتجددة بالعطاء مازالت كما هي وكعهدنا بها خضراء العود رغم بعض الظروف، وفيما يتعلق بالتراث نرى أن هذا العنصر مهم أيضًا باعتباره الأساس المكون لأي ثقافة قومية وشعبية، والحضارات في الواقع لم تبرز عبر مراحل التاريخ إلا من خلال ثوابتها التراثية والإنجازات الثقافية الرائعة التي حققتها عبر حقب التاريخ، وما زال صدى وآثار التراث العربي والإسلامي في الأندلس، وفي بلاد أخرى شامخًا وشاهدًا على عبقرية الأجداد. ونحن عندما نتحدث عن التراث لا نتحدث في الواقع عن القلاع والإسمنت، وإنما عن ثوابت راسخة في التراث والثقافة بمختلف فروعها ومساراتها، فالتراث هو موروث ومكتسبات، فرض علينا نحن كأجيال وما دام هو كذلك، فإن المسار أصبح واضحًا دون تحديد جزئيات، أي بمعنى أنه يجب علينا أن نصوغ خطابًا شفويًا يطرح سجالًا يكون محوره النخبة المثقفة، التي هي أعلم من غيرها بمسارات الخطاب التراثي العربي، عندئذ من الممكن أن نعيد طرح مشروع الحضارات والتراث والثقافة أو التقدم

لأي بلد. وكما يقول الكاتب والمفكر المسرحي سعد الله ونوس: «إن التراث سيظل إشكالية تربك اكثر مما تسعف، مالم يتم تحديده ولايمكن تحديد أي تراث إلا في ضوء تاريخيته، ولهذا فإن تاريخنا هو بالضبط تراثنا وهذا التاريخ لم يكتب بعد وكتابته تقتضي منهجًا علميًا ينحي سطوة اللاهوت، والتحيزات ودواعي الايديولوجيا التعبوية»[1].

الهوامش

(1) سعد الله ونوس، الثقافة الوطنية والوعي التاريخي - كتاب **قضايا وشهادات** ص23.

الهوية والتراث ومستقبل الثقافة العربية

مسألة الهوية والتراث، من المسائل التي تعتبر الأكثر جدلًا في الساحة الثقافية في وقتنا الراهن، وهي إشكالية ربما ظهرت أو جاءت عن طريق الخطاب الثقافي الجديد الذي أصبح يمتلك رصيدًا كبيرًا في مجال الإبداع، ونتيجة لذلك كان لابد من حبك صياغة جديدة من شأنها أن تكرس الموروث وتجعل منه عنصرًا فاعلًا ومؤثرًا حتى يستطيع أن يتماشى مع اللغة التي أصبحت تنتهجها الثقافة الجديدة، باعتبار أن ماضي الأمة العربية والإسلامية كان ماضيًا مضيئًا وشعلة متوهجة في الثقافة وفي مختلف العلوم الإنسانية، حيث يعتبر القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر الميلاديان حقبة تنويرية بلغت فيهما الحضارة العربية والإسلامية أوج ازدهارها وتألقها العلمي والثقافي. لقد كانت مرحلة متنورة عاشت فيها الأمة العربية والإسلامية في أوج عزها وانتصاراتها التاريخية وازدهارها الفكري والعلمي، واليوم هانحن نبدأ مرحلة جديدة، لكنها ويا للأسف لا تضيف أي شيء إلى تلك الانتصارات السابقة الخالدة بقد ر ما هي

تعيش وضعًا متقهقرًا لا يؤسس لحقبة تنويرية. ولذلك وبعد انهيار المؤسسات العلمية التي كانت تعتبر في يوم ما واحدًا من أهم المعاقل العلمية التي يفتخر بها كل عربي، نجد أنه لا يمكن الاستمرار في سكب الدموع والتغني على الأطلال، وإنما البحث عن مقومات جديدة من شأنها أن تقوّم حركة الابداع العربية، كما كانت عليه في تلك القرون حضارة مزدهرة، إن أهمية مراجعة التراث في الواقع وتساؤلاتنا عن هويته وشموليته لتحديد شخصيتنا الذاتية، لا تأتي من كونه يمثل حالة استثنائية في تاريخنا كعرب ومسلمين وإنما هي بمثابة تجربة، امتزجت بالنضال، والابتكارات العلمية، وتكوين الأساسيات الصلبة للأدب والثقافة. وتاريخنا العربي والإسلامي يذكر بكل الفخر والاعتزاز، البطولات التي سطرها الأجداد، قديمًا وحديثًا، على امتداد وطننا العربي، يقول الدكتور محمد عماره: «إنه من الطبيعي لأمة تتلمس طريقها للنهضة، بعد أن فقدت استقلالها، زمنًا وتوقف تقدمها في ظل الاستعمار، أن تثور في الحياة الفكرية لهذه الأمة، التساؤل عن علاقة حاضرها ومستقبلها،بما لها من تراث»، والغرب باعتباره المحرك الأول للمؤثرات الفكرية منذ المحاولات الأولى المتمثلة في انفتاحه على الحضارة الإسلامية وأخذه أنواع التجارب العلمية والثقافية كافة لا يمكن له أن يقف عند تقدم علمي عربي إسلامي معين وإنما يخطط إلى ما هو أبعد من ذلك

وقد كانت حملة نابليون على مصر تمثل نقطة تحول ومنعطفًا هامًا في تاريخ المجتمع العربي، ثقافيًا، وفكريًا، واجتماعيًا، سواء كان ذلك على صعيد طمس الهوية المصرية، للإنسان العربي في مصر أو فيما يتعلق ببث الأفكار والتقاليد الغربية، داخل المجتمع العربي، حيث كان الوعي لدى الإنسان المصري يأخذ مسارًا آخر ولكن ليس بالشكل المؤثر، فقد ظلت الشخصية العربية، بفضل ما تملكه من تراث وقيم، وحضارة أصيلة، ضاربة في جذور التاريخ، صامدة لم تفقد خلالها هويتها، ولذلك فإننا عندما نرجع إلى التاريخ الحافل للأمة العربية والإسلامية في تلك الحقبة البعيدة، نجد أن الشخصية العربية رغم انفتاحها على العالم ومختلف الحضارات، لم تفقد خلالها هويتها وإنما كانت في أشد الحذر خلال استقائها مختلف العلوم والفنون، يقول (محمد عمارة)[1] أيضًا: «إن العرب والمسلمين عندما انفتحوا على الحضارات الفارسية، واليونانية، تحولت إلى فلسفة إسلامية. الأدب اليوناني الوثني وجاهلية اليونان تركا لأن فيهما الوثنية المضادة للتوحيد» وإذا تأملنا في الموروث الأدبي والثقافي العظيم من شعر ونثر وغيرها من الفنون، نجد أن التراث العربي والإسلامي كانا ولا يزالان العامل الأساسي، الذي ينبني عليه أي مشروع ثقافي سواء كان ذلك في عصرنا الحالي أو مستقبلًا. وقد ظل الأدب الكلاسيكي من شعر ونثر شامخًا

رغم التحولات والمفارقات الكبيرة التي طرأت على خارطة الأدب والثقافة العربية، فما زال الشعراء يعيشون بيننا، رغم رحيل بعضهم منذ آلاف السنين ومازال صوتهم يتردد صداه في كل مكان في وطننا العربي، وحينما يكون التراث حاضرًا فمعنى ذلك، أن الأمة تعيش في قمة سموها وازدهارها، حيث أن بقاء التراث على عظمته، هو بمثابة مكسب كبير لتطوير البنى الثقافية، ومستقبل الثقافة في الواقع لا يمكن لنا أن نحدده في إطار من المظهرية والشكلانية التي لا تعطي للإنسان والمجتمع، أي مردود إيجابي، وإنما من خلال المسار، والتوجه العملي، الذي يمكن أن تقوم به الثقافة، في تنوير المجتمع، وذلك عن طريق غرس القيم والمبادىء الواعية والمتحررة والبعيدة كل البعد، عن اللغة التقليدية والمهمشة، من خلال ذلك كله يتضح لنا مدى دوره في بلورة المسار التاريخي لحياة الشعوب، والثقافة باعتبارها حركة تنويرية تعكس الوجه الحضاري للشعوب، لا يمكن لها في الواقع أن تأخذ ذلك المسار، لبلورة المفهوم التاريخي للإبداع إذا لم تستند على تراث قوي وذلك لما له من دور في عملية الإثراء المعرفي في مختلف العناصر من شعر ونثر وغيرها من العلوم، يقول د. جابر عصفور[2]: «وفي الفنون يمكن أن يكون التراث عدوًا للحداثة مناقضًا لها، أو نصيرًا لها ومبررًا لوجودها وذلك بالمعنى الذي يغدو به «البحتري» نموذجًا أوليًا للدفاع

عن التقليد أو يغدو أبو نواس نموذجًا مبكرًا من «بودلير» وأبو تمام نموذجًا سابقًا على ملارميه». وغير بعيد من ذلك تحولات بلاغي مثل عبد القاهرالجرجاني في أسراره ودلائله (حين يمكن أن نعده نافرًا من حداثة أبي تمام، أو نجعله نموذجًا سابقًا لما أنجزه دي سوسير وتشاردز وياكوبسون ورولان بارت وكل من يأتي بعدهم من أعاجم المحدثين). ولو رجعنا إلى فترتي الخمسينيات، والستينيات نجد أن الأدب كان مزدهرًا خلال تلك الفترة، حيث انتقلت خلالها الثقافة العربية وخصوصًا الأدب من شعر ونثر من التزمت إلى الانطلاقة والإبداع، حتى أصبح الأدب والثقافة العربية يخطوان خطوات متقدمة ساهمت في رقي وتطور البنية الأساسية، للمجتمعات العربية. وهذا الدور في الواقع يرجع إلى الجهد الكبير الذي قام به، المثقفون والأدباء العرب بفضل ما يملكونه من تجارب إبداعية كبيرة نتيجة احتكاكهم بالثقافة الأوروبية، التي كانت تعيش عصرًا مزدهرًا في تلك الفترة خصوصًا فرنسا وبريطانيا وإيطاليا، يقول الكاتب عزيز العظمة[3]: «هذه أزمنة يحق للبشرية أن تفتخر بها، طرحت بها قضية معينة، عصر النهضة في ايطاليا الذي شهد استصلاحًا واسعًا جدًا للتراث اليوناني «عند بترارك» في مجال الأدب، وعند العلماء والفلاسفة أمثال «برونو» «وغاليليو» الذين اعتنقوا الأفلاطونية والهرمسية، كمناذج استعارية، في بدايات العلم الحديث»،

ومن هنا نصل إلى مدى أهمية التراث والدور الذي يؤديه في مختلف المراحل، والسنوات، والقرون، كتراث فكري ومرجع يحتضن مختلف مراحل الإبداع. ولذلك فإن الحديث عن التراث كثقافة وفكر، وعن الهوية لتحديد الشخصية الذاتية، بجوهرها الحقيقي، إنما يأتي للتذكير بأن التراث الإنساني له دور وله قيمة، ولسنا نقف موقف الرفض منه كقول أبي تمام:

فنفسك قط أصلحها
ودعني من قديم أبي

الهوامش

(4) د. محمد عمارة، **التراث بين السلطان والتاريخ**، مجموعة كتاب، دار الطليعة

(5) د. جابر عصفور، **هواش على دفتر التنوير**، دار سعاد الصباح، ص 39.

(6) عزيز العظمة، **التراث بين السلطان والتاريخ**، مجموعة كتاب، دار الطليعة.

مستقبل الشعر

يأتي الشعر اليوم، في ظل مناخ ثقافي متذبذب نظرًا إلى الظروف الاجتماعية، والسياسية التي أصبح يمر بها الشاعر العربي. الأمر الذي جعله يقف أمام تجربة لا يستطيع مواجهتها إلا من خلال رصيد ثقافي يستطيع أن يواجه به جميع أنواع المؤثرات ذات الصلة بالإبداع. وعندما نتأمل التاريخ الشعري، منذ العصر الجاهلي والعصور اللاحقة، فإننا نجد أنفسنا أمام تراث أدبي يزهو بشعراء كبار، كامرىء القيس، وأبي تمام، والمتنبي، وابن زيدون. هذا الشاعر الذي يجعلنا نقف إجلالًا لقصيدته الرائعة التي قالها في ولادة بنت الخليفة المستكفي، وهو متنقل من سجن إلى سجن، وكان طبيعيًا أن يكون لهذه القصيدة رؤى متميزة وصور فنية في غاية الروعة والجمال، نظرًا إلى كون القصيدة جاءت بعد تجربة قاسية مر بها الشاعر امتزجت بتجربة العشق، والشعر، والسجن، والتي يقول فيها:

كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه
وقد يئسنا فما لليأس يغرينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقًا إليكم ولا جفّت مآقينا

تكاد حين تناجيكم ضمائرنا
يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت
سودًا وكانت بكم بيضًا ليالينا

هذه التجارب وهذه الظروف في الواقع، لا يمكن أن ننسى دورها أو نتجاهلها، على صعيد بلورة وصياغة لغة جديدة للشعر ذات أسلوب طليعي في رسم الصورة الشعرية. لأن الشاعر الحقيقي والشعر بصورة عامة يأتي وليد التجارب فأي شاعر لا يمر بتجارب مريرة ولا يعبر عن أحاسيس صادقة، لا يمكن في الواقع أن يصبح شاعرًا، كما أن شعره لا يمكن أن يؤسس شعرًا حقيقيًا وناضجًا أو حتى متقبلًا من قبل الجمهور. وإذا ما نظرنا إلى الكم الشعري الذي ينشر في الصحافة أو الذي يأتي على شكل كتب نجد أن بعض الشعر لا يمكن أن يسمى شعرًا نظرًا إلى عدم اكتمال نضجه ومن ناحية ثانية ضعف المقومات الأساسية للشعر نفسه، فالشعر إذا لم يملك توجهًا وإذا لم يملك العوامل الأساسية كرصانة الأسلوب، الموسيقى، والإيقاعات الشعرية الجميلة التي تستطيع أن تؤثر في المتلقي فليس جائزًا أن نطلق عليه شعرًا، يقول الدكتور والأديب اليمني عبد العزيز المقالح[1]: «لم يكن الشعر الجاهلي واحدًا منذ العصر الجاهلي فأواصر القربى بين قديم الشعر وحديثه قائمة، والمنطلقات الأساسية للرؤيا لا تزال ثابتة، وكما توجد أقلام تقليدية تدين ظاهرة الشعرالحديث أيضًا هناك أقلام حديثة لا ترى في الجزء

الأكبر من ظاهرة الشعر الحديث إلا اجترارًا للقديم» ومن هذا المنطلق فإن الاختلاف حول الشعر قديمه وحديثه، لم يكن في الواقع وليد عصرنا وزماننا وإنما منذ قرون وحقب طويلة. والذي جعل قضية الشعر تثار بهذا الجدل وبهذا الحجم إنما يرجع إلى عدة عوامل: منها انتشار التعليم، وتطور وسائل الاتصال، من صحافة وإذاعة وتليفزيون وغيرها، وإيجاد الوسائل الثقافية كالمسرح وغيره مما أفرز نوعيات جيدة من المتنورين المثقفين، بمختلف توجهاتهم، أضف إلى ذلك الظروف الاجتماعية، والسياسية، فلهذه العوامل دورها أيضًا في بلورة التفاعلات الأدبية والثقافية، ولذلك فإن الشعر رغم أنه يمثل القاعدة الأولى باعتباره ديوان العرب إلا أن المطلوب في عصرنا هذا هو خلق مناخ ابداعي متنوع يشمل مختلف الروافد الأدبية، والثقافية، أي بمعنى آخر، عندما نكتب شعرًا يجب علينا ألا نقصر اهتمامنا على ناحية معينة، وإنما يجب أن تكون الروافد والمجالات الأدبية الأخرى موجودة أيضًا، يقول[2] «الأديب الروائي المعروف جبرا إبراهيم جبرا» أن ازدهار الشعر كان في العصر الزراعي، أما عصرنا هذا فهو عصر الرواية «وقضية الغموض في الشعر الحديث لم يثر الجدل حولها في الواقع إلا من باب عدم اكتمال الرؤية بالنسبة لبعض المثقفين الذين لم يأخذوا من الثقافة إلا قسطًا زهيدًا، إذ قلما تجد قارئًا لهذا الشعر يستطيع أن يأتي بتفسير لشعر حديث نظرًا لعدم وضوحه، أو بمعنى آخر أنه لا يتمتع بموسيقى داخلية، كالتي نسمعها في الشعر

العمودي أو الكلاسيكي وهذا بطبيعة الحال عائد إلى ظروف الشاعر نفسه، بحكم معايشته لبيئته ومجتمعه»[3]، والدكتور طه حسين له موقف أيضًا حول الشعر وخصوصًا شعر المحدثين وقد كان هذا الموقف طريفًا حيث يعلق على بيت لأبي تمام أثار النقاد الكبار حوله خلافًا كبيرًا وهو:

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه
بكفيك ما ماريت في أنه يردُ

«ويأتي تعليق عميد الأدب العربي على هذا البيت، هو أن الدكتور طه حسين كانت قراءاته، تنصب حول الأدب القديم، وقصائد فحول الشعراء في العصر الجاهلي، والعباسي بما هي عليه من صور وبلاغة في غاية الروعة والجمال، وأيضًا إلى العبارات المؤثرة التي تختزلها قصيدة وأخرى» وحول هذه المسألة هناك قول آخر كما جاء في مجلة مواقف للدكتور عبد العزيز المقالح أيضًا[4] «وهو أن أبا تمام كما يشير إلى ذلك نص طه حسين يرفض القيم الشعرية البدوية ويسعى إلى تأسيس قيم شعرية جديدة تتناسب، مع الحياة المدنية الجديدة».

الهوامش

(1) د. عبد العزيز المقالح، مجلة مواقف، العدد 56 ص 47.
(2) جبرا إبراهيم جبرا، محاضرة بالمجمع الثقافي - أبو ظبي.
(3) د. عبد العزيز المقالح، مجلة **مواقف**، العدد 56، ص 50.
(4) د. عبد العزيز المقالح، مجلة **مواقف** العدد نفسه ص 51.

معنى الحداثة في الأدب والثقافة

لا تعتبر الحداثة بمثابة عمل انقلابي على الموروث القديم، بما يحتويه من أدب وشعر ونثر، أو التغيير في بنية اللغة والثقافة وهيكلية القصيدة التقليدية المعروفة فحسب، (وإنما هي تدمير جميع الأشكال الجامدة التي تعوق تطور الفن والشعر. عنت ظهور أخلاق جديدة وحساسية جديدة مختلفة عن السابق. ويرى بالانديه أن أوروبا وفرنسا على وجه الخصوص قد شهدتا ثلاثة أنواع من الحداثة العقلية والمادية. المرحلة الأولى تتمثل بالمرور من العصور الوسطى إلى مرحلة النهضة وقد توافقت هذه المرحلة مع اللحظة الديكارتية ومع ميكيافيلي فيما يخص السياسة مع المنجزات العلمية والتكنلوجية، مع العمران والمدن وتطور المعامل ورأس المال وذلك بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر، المرحلة الثانية أو الحداثة الثانية فهي تلك التي أثارتها حركة التنوير في القرن الثامن عشر وتوجت بالثورة الفرنسية وتم اكتشاف حركات الفكر بواسطة العلم والتقنية وأدى هذا الانعطاف إلى التوجه نحو الديمقراطية. أما الحداثة الثالثة فإنها تتميز بانفجار التقنيات المعقدة من كل نوع وإعادة النظر بالعامل السياسي في وظائفيته

التقليدية)[1] وقد أصبح المتلقي على وعي بالمسألة خصوصًا بعد وضوح الرؤية بالنسبة إلى ما تعنيه الحداثة. ومن هذا المنطلق فإن تطوير الأدب والثقافة وإضافة تأطيرات وفنيات جديدة، هو أمر في غاية الأهمية، وذلك بغية إحداث تحول في بنية الثقافة العربية، حتى تستطيع أن تفرض وجودها على المستوى العالمي، يقول صلاح الحمداني في مقال له نشرته مجلة كلمات، البحرينية: «الحداثة تعني للشاعر تفجير الموروث والخروج عن كل ما هو قيد أو شرط تقني، وبما أن الحداثة بعد تأريخي فهي تشترط إذن تبدل الرؤية للوجود وموجوداته وما بينهما من علائق، أي هي محاولة لتأسيس لغة مضادة مغايرة للخط السائد»[2]. وبهذه النهجية استطاعت الحداثة رغم مخالفتها للموروث وخروجها على الخط السائد، الذي سارت عليه القصيدة الكلاسيكية عبر حقبة طويلة من الزمن بدأت من الشعر الجاهلي، وإلى يومنا هذا، استطاعت أن تؤكد حضورها وتفاعلها على مستوى الثقافات سواء منها العالمية، أو العربية وبقدر ما نحن نؤيد الحداثة بكل هذه الجرأة لا يعني ذلك تجاهلًا للموروث، شكلًا وأسلوبًا وبناء، فالموروث هو الأساس، وهو الاستمرار الطبيعي، للأدب الحداثي، فالذي نقصده هو مجرد طرح حوار من أجل إيجاد مخرج يؤسس لمستقبل ثقافي وأدبي أفضل، فالخروج على التقليد لا يعني أننا نقذف بالأسس، والمقومات ذات الصفة الإبداعية، والتأسيسية للأدب الكلاسيكي بشكل عام والشعر

على وجه الخصوص، وإنما كما قلت سابقًا هو إيجاد نوع من التحول لخلق مرونة أكثر فاعلية وأكثر ديناميكية، وهذا في الواقع قد لا يأتي إلا عن طريق إزاحة العباءة، التي ظلت تلبسها القبيلة أي القصيدة التقليدية لعدة قرون.
وحينما نتحدث عن مستقبل الثقافة والإنتاج الشعري والأدبي، فإنما نعني بذلك أن الشرعية التي تملك زمام الثقافة العربية ليست خاضعة لفرد معين كاتب، أو أديب أو روائي، أو مفكر وإنما هناك تقنية خاصة، وعوامل تربط البنية الأساسية لحركة الثقافة العربية، أي بمعنى أن تأخذ الجانب الليبرالي والفكر التنويري، وهي معطيات ساهمت في إعطاء ثقافتنا وأدبنا خصوصية الغزارة في الإنتاج، وخصوصية التفوق في جميع المجالات، وهذا هو في الواقع الذي نريده ونطالب به وهو المرونة في تفعيل الثقافة من قبل «النخبة المثقفة» أو المؤسسات الثقافية التي يرجع إليها الفضل في المساهمة في تطور حركة الثقافة العربية وتقدمها، يقول[3] الدكتور عبدالله عبد الدايم: «إن الثقافة الذاتية التي نريدها تجد تعبيرًا واضحًا عنها في العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية، لقد كانت المعجزة كما سماها «فانتيجو» أنها استطاعت أن تجمع بين الاتجاه العلمي التجريبي مجاوزة بذلك الاتجاه العقلي المحض الذي ساد لدى اليونان وبين الاتجاه الإنساني الروحي الذي أفرزه الدين الإسلامي، والذي أدى بدوره في النهاية إلى ولادة الحضارة الأوروبية الحديثة» ومن هنا يمكننا أن

نستخلص من خلال موضوعنا عن تحديث الأدب والثقافة على صعيد الثورة التي فجرتها الحداثة سواء في مجال الشعر أو الرواية أو القصة، أو الأدب بصورة عامة، إلى أن الأدب الكلاسيكي، سوف يبقى دائمًا وأبدًا الموروث المرجعي، والقاموس المعرفي لكل تطوير في مختلف العناصر الأدبية سواء كان ذلك في الشعر أو الرواية أو القصة أو غيرها من الأعمال التي يمكن أن تؤسس والتي يمكن أن تعطي توجهًا متوازنًا ذا ديناميكية رغم التغير الجذري الذي فجرته الحداثة في بنية الأدب والثقافة العربية. وحينما نتتبع المسيرة الثقافية اليوم، ونلقي نظرة على مدى الازدهار الذي كانت عليه الثقافة في السنوات الماضية، نجد أن هناك فرقًا كبيرًا، نظرًا إلى الاهتمام الذي يوليه الأدباء والمثقفون في تلك الفترة الماضية، إلى ما يتعلق بتطوير الأدب والثقافة، وذلك من خلال المجلات الأدبية، التي كانت تصدر تباعًا كمجلة «شعر» «والآداب» ومجلة فصول ومواقف والكرمل وغيرها حيث استطاعت هذه المجلات، أن ترقى بالأدب والثقافة، وأن تساهم بشكل فعال في تطوير وتشجيع المواهب بمختلف مدارسها وتوجهاتها، ومذاهبها. مما أعطى دورًا معنويًا ساهم في دفع عملية الإبداع، وفي الارتقاء أيضًا بهذه المواهب إلى مكانة أفضل، الأمر الذي جعلها تبدع وتعطي نتاجًا معرفيًا، أفضل. إن هذا الدور في الواقع الذي نتحدث عنه، لم يأت من ترسب فراغي على حساب الثقافة، وإنما جاء نتيجة

لعوامل اجتماعية وثقافية، وجغرافية بالإضافة إلى الدور الذي لعبته بعض الشخصيات الأدبية والفكرية، في بيروت ذلك الوقت التي كانت تمثل بؤرة التقاء الثقافات العربية والأجنبية، بمختلف توجهاتها، وتياراتها، وقد كان للمقاهي دور بارز ورائد في تنمية وتقدم الأدب والثقافة، وذلك من خلال اللقاءات التي كانت تتم بين الأدباء والكتاب والشعراء لمناقشة ما تنشره المجلات الأدبية في مختلف الفنون والعلوم، حيث ساهمت تلك المقاهي والمجلات الأدبية على السواء في تنشيط الحركة الإبداعية وفي استقطاب عدد من المواهب التي أصبحت اليوم أحد الرموز التي يشار إليها في ميادين الثقافة على المستوى الإقليمي والعربي. مما كان له الأثر الفعال في تحريك الأجواء الثقافية وزيادة الوعي. ولكن بالرغم من ذلك التفاعل الذي أحدثته المجلات الأدبية في بيروت ودمشق وبغداد والقاهرة في تلك السنوات الماضية وبالرغم من المد المعرفي، الذي دخل البلدان العربية من المحيط إلى الخليج، رغم ذلك فإننا مازلنا نشعر بأننا لم نضف شيئًا جديدًا حتى الآن، باستثناء مجلة شؤون أدبية ومجلة نزوى ودبي الثقافية ومجلة الدوحة التي تحاول قدر الامكان أن تؤسس لها مكانة على صعيد إحياء الدور الريادي في الخمسينيات والستينيات، وفي الواقع عندما تكون الثقافة، بهذا الاهتمام وبهذا المستوى فمعنى ذلك، أن الثقافة أصبح لها مكانتها، وهذا يجعلنا غير متشائمين، فالأمل مازال باقيًا مادامت هناك

أقلام تملك القدرة والعزيمة على مواصلة العطاء، وعلى السير في الطريق الذي يعطي الثقافة حقها ويرسم لها آمالها وتوجهها. فكما أعطت المجلات الأدبية (شعر، والآداب والناقد) زادًا معرفيًا، وكما أعطى الأدباء والشعراء عصارة جهدهم، فإن هناك أقلامًا أيضًا يمكن أن تضيء الشموع في مسيرة الحركة الإبداعية.

الهوامش

(1) د. أنيسة الأمين امرأة الحداثة العربية - كتاب **قضايا وشهادات** ص100، 101

(2) صلاح الحمداني، مجلة **كلمات** البحرينية.

(3) د. عبد الله عبد الدائم، **في سبيل ثقافة عربية ذاتية**، ص38.

الثقافة الاستهلاكية

ربما يأتي الحديث، ضمن هذا السياق الأدبي والثقافي، عن الثقافة الاستهلاكية، ربما يأتي لأهمية الثقافة ودورها التنويري في الجتمع، لكن في عصرنا الحالي، قد لا يكون للثقافة ذلك الاهتمام وذلك الدور الريادي، نظرًا إلى تأثير الجانب المادي، وغياب الوعي الأخلاقي؟ والتناقض الاجتماعي، وطغيان المظهرية الزائدة بمختلف أشكالها وألوانها، كل ذلك كان له دوره المباشر في تهميش الثقافة، من قبل الأفراد في المجتمع، الأمر الذي ستكون له آثاره السلبية على مدى السنين القادمة، لذلك كان لابد من البحث عن مسار آخر وعن دور مؤثر للثقافة، حتى يستطيع المجتمع أن يتحرر من القيود التقليدية السائدة والمعروفة كافة، لأنه وفي ظل هذا التراجع وفي ظل هذا العزوف، لابد وأن يكون هناك نوع من الوعي بأهمية ودور الثقافة في المجتمع، وإعطاء الجانب الإبداعي دوره التنويري الفاعل والمؤسس في الحياة عبر كل الدروب والمسارات، وغير ذلك لا نرى أي خيار، بل لا نرى أي تقدم على المسار الثقافي، والمعطيات الثقافية الراهنة، والدراسات الفكرية الجديدة، تحاول في الواقع أن تناقش مثل هذه العوائق والمشاكل الآنية التي أصبحت تعانيها

الشعوب والمجتمعات، نتيجة تكريس بعض المفاهيم الخاطئة وتكريس مضمون وأسلوب الثقافة الاستهلاكية، تلك الثقافة التي لا يمكن لها أن تؤسس ذلك المسار الذي نطمح إليه والذي يمكن أن يؤسس ذلك المشروع الثقافي الكبير، لأنها في الأساس ثقافة مادية ذات طبيعة رأسمالية، ومثل هذه الثقافة هي ثقافة فاشلة من الأساس، لذلك كان لابد من صيغة جديدة وخطاب مؤثر من شأنه أن يحطم، تلك التقاليد وأن يكون هناك نوع من التكثيف الإبداعي عبر كل المسارات والدروب ولكن الذي حدث أن ما نتوهمه شيء، وما نريده شيء آخر أيضًا، والواقع يفرض نفسه دائمًا، وما دمنا ارتضينا إثارة مثل هذا الموضوع، فعلينا أن نتقبل أيضًا الكتابات التقليدية، حتى تستطيع الثقافة الجادة أن تتغلب على بعض المعوقات، التي تأتي إليها من إفرازات الثقافة الاستهلاكية المسطحة، لا ضرر في ذلك، فالمطلوب هو الصمود حتى النهاية، فرسالة الكتابة، ورسالة الأدب، والثقافة، لها أهداف إنسانية، ورسالة خالدة، لا يمكن الانتقاص منها، لذلك فالرد الحقيقي على كل من يريد أن يقلل من رسالة الثقافة، الرد عليه بأسلوب الكتابة الواعية، تلك الكتابة التي ترفض كل أنواع الهدم فالرفض وحده القادر على الوقوف في وجه الكتابات التي تأتي من إفرازات الثقافة الاستهلاكية المعلبة، وفي ظل هذا التراجع الفكري ليس هناك، مسار آخر سوى فتح المجال لممارسة الكتابة بشكل متواصل، وإطلاق الوعي الثقافي عبر كل الدروب والمسارات، لأن الوقت قد حان لتحديد مسار

ووجهة التوجه الحقيقي للكتابة الجادة، ودون ذلك تصبح شخصية الأدب والثقافة التي يفترض أن يكون لها قدسيتها الاجتماعية والتربوية في المجتمع، لا وجود لها، وقد جاء هذا المقال ليثير مسألة مهمة وهي تبصير الكاتب والمثقف بدورهما في المجتمع وتبليغ رسالته على أرقى المستويات المعرفية، وإعطاء الجانب الفكري والفني، كل الجهد ومزيدًا من الاجتهاد حتى يؤدي رسالته على أكمل وجه، يقول المفكر المعروف محمد عابد الجابري: «نستطيع أن نستمر طويلًا في سرد المظاهر التي تبرز من خلالها أهمية (المسألة الثقافية) في عالم اليوم، ولكننا سنكتفي بما ذكرنا، لأن ما يهمنا هنا ليس استقصاء تلك المظاهر، بل يهمنا فقط إثارة الانتباه إذا كان هناك اليوم من هو في حاجة إلى ذلك إلى الأهمية التي تكتسبها المسألة الثقافية تمهيدًا لاقتراح نوع من النظر إلى هذه المسالة كما تطرح بل كما ينبغي أن تطرح، بالنسبة إلى الوطن العربي خدمة لحاضره ومستقبله ـ الوطن الذي يمتد جغرافيًا وحضاريًا من المحيط إلى الخليج والذي تشكل الثقافة أهم مقومات وجوده، إن لم نقل مقومه الأساسي على الإطلاق»[1]، ومن هذا المنطلق تبدو مهمة الكاتب في غاية الصعوبة نظرًا إلى ما ينتظره من دور فاعل في المجتمع عبر مختلف المسارات والدروب، ومن هنا في الواقع يبدو أن الحديث والاسهاب في موضوع كهذا عن الثقافة ودورها التنويري في المجتمع ربما يجلب بعض المفاجآت التي لم نتوقعها أساسًا في محاوراتنا ومناقشاتنا في الأمور التي تهم الثقافة، رغم أنها

تعتبر من المواضيع الحساسة في الوقت الراهن، لكون الثقافة اليوم تمثل الهوية الحقيقية والرافد الأساسي ـ لكثير من الشعوب. لذلك فإن الأمر يبدو في غاية الخطورة، لما تشكله هذه الظاهرة من تحد لواقعنا الثقافي، ولكياننا، الذي تأسس، على ركام من المعرفة، وعلى ركام من الاجتهاد، من أجل إبراز واقعنا الثقافي والأدبي، إلى مكانة أرقى، وإلى مكانة من شأنها أن تعبر عن ديناميكية الإنجاز، الذي بناه الأجداد، في ظل الظاهرة الجديدة، التي استطاعت أن تقلب موازين المجتمع، وتعريه من جذوره، وتحوله من مجتمع ثقافي فاعل ومؤثر إلى مجتمع استهلاكي لا يعرف غير المادة، في تعامله اليومي والآني وهو ما يمكننا تعريفه، بالثقافة الاستهلاكية، لذلك كان لابد من رد حاسم، وخطاب مؤثر، من شأنه أن ينبه الآخر ويعيده إلى مساره الحقيقي. المسار الواعي والمتنور الذي يساعد على خلق مجتمع جديد ومزدهر.

الهوامش

(1) د. محمد عابد الجابري، **المسألة الثقافية**، مركز دراسات الوحدة العربية.

المجلات الثقافية العربية
بين التواصل والانقطاع

تمثل المجلات الأدبية والثقافة، منعطفًا هامًا، وأكثر «ديناميكية» في مسيرة الثقافة العربية لما لها من دور ريادي ومؤثر في حركة الإبداع العربي. ونظرًا إلى أهمية طرح مثل هذا الموضوع، كان لابد وأن نتناوله، كموضوع عام، حيث أن تطور وجهد مجلة ما يعتبران في الواقع تطورًا للثقافة العربية، والمثقف العربي بصفة خاصة فالقضية إذًا لا تنحصر، في شكل هذه المجلات، أو في جانبها الإعلامي والدعائي، وإنما في ما تحمله من مضمون، وفي مدى قدرة هذه المجلات على مواصلة العطاء، والصمود في وجه التحديات، والتحديات كثيرة في عالمنا اليوم، فهو عالم مليء بالتحولات، وعالم ينتابه الغموض والضياع والانهيار الاقتصادي، والتناقض الاجتماعي وتهميش القاعدة العلمية التربوية والتدريبية، وتفشي الفساد والدليل على ذلك تزايد نسبة الأمية، كما أن الثقافة تأتي في المرتبة الثالثة بعد الطعام والكماليات، ومن هنا في الواقع يبدو أن الحديث سيكون شيقًا إلى أبعد الحدود، خصوصًا عند التطرق إلى مثل هذه المواضيع الحساسة والمصيرية بالنسبة إلى بقاء

الثقافة، لأنه من طبيعة العالم اليوم، أو النظام العالمي الجديد، أنهما لا يقبلان أو لا يتعاملان مع أسلوب الجدل التقليدي المتعارف عليه، ولا يقبلان المعادلة المتكافئة عالم طموح يسعى إلى الرقي والتقدم، ولذلك عندما نناقش الوضع الحالي للمجلات الثقافية، نرى أنه لابد من توضيح جميع الإشكاليات، حتى تكون هناك رؤية واضحة لإشكالية العلاقة القائمة بين الثقافة والمثقف العربي، وبين القاعدة التأسيسية أو الجهة الممولة لهذه المجلات، حيث إن مسألة ارتقاء وتدني مجلة ما يعتمد على مدى الدعم الذي يقدم إلى هذه المجلة. والشيء الثاني والأهم هو توظيف وتدريب المثقف والكاتب المواطن في كل دولة، إضافة إلى توفير المناخ الإبداعي والانفتاح الثقافي بكل ما يعنيه هذا الانفتاح، حيث إن وجود هذه العناصر من شأنه أن يساهم في تطوير المجلات الثقافية العربية، فالمسألة إذن تتركز في الآلية التي تساعد على دفع وبلورة التطور والإنجاز الذي تتوخى تحقيقه مجلة وأخرى، ولو رجعنا إلى الحقب الماضية، فترة الخمسينيات والستينيات وبداية السبعينيات، كانت الساحة الثقافية العربية تزدحم بالمجلات الأدبية والثقافية «في بغداد ودمشق وبيروت والقاهرة» من هذه المجلات على سبيل المثال «مجلة شعر، مجلة الآداب مجلة فصول ومجلة العربي الكويتية» ثم جاءت فترة السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات وتوالت الإصدارات الصحفية الجديدة، مثل مجلة كلمات، وشؤون أدبية ومجلة مواقف، والكرمل، والمدى، وكتابات معاصرة ومجلة

الناقد وفي سلطنة عمان مجلة «نزوى» التي صدرت حديثًا ومجلة «سراج» وقد كان لوجود هذه النخبة من المجلات أثر في تحريك المناخ الثقافي، وعامل مساعد على إبراز عدد من المواهب في مختلف المجالات الأدبية والثقافية ولكن بالرغم من ذلك، تبقى فترة الستينيات، ملمحًا بارزًا ومعلمًا أكثر ضياء، في مسيرة الحركة الأدبية والثقافية، حيث تعتبر تلك الفترة البداية الحقيقية، لانطلاقة الثقافة العربية، وقد لعبت مجلة شعر، التي كان يرأسها يوسف الخال، دورًا في إثراء العمل الإبداعي الشعري على وجه الخصوص ونتيجة لذلك الجهد، فإن العديد من المواهب استطاعت أن تبرز وتقدم عصارة تجاربها الإبداعية، وبقيت أسماء معروفة، ترجمت أعمالهم إلى لغات عديدة. ومن هذا المنطلق، نعتقد أن الانفتاح الثقافي، وتهيئة المناخ، أمام هذه المجلات بصفة خاصة، والمبدعين بصفة عامة، إضافة إلى الدور الإعلامي الجاد والبارز في تلك الفترة، مكن هذه المجلات من تأكيد حضورها وتواصلها عبر مختلف الاتجاهات والقنوات الثقافية ولم يكن ذلك الحضور يتوقف في الواقع على الجانب الدعائي من حيث الشكل واسم المجلة، وإنما من حيث المضمون، والتنوع في المواضيع والإخراج الجيد. هذه العناصر في الواقع، كان لها دورها وتأثيرها المباشر في بقاء هذه المجلات كمجلات رائدة، لها سمعتها وهويتها المميزة في الوطن العربي، كما أنها أصبحت جزءًا لا يتجزأ من التراث الفكري العربي، ونحن في الواقع، بما نملكه من تراث

ومن فكر مستنير عبر مختلف مراحل الأدب العربي المزدهرة، نرى أنه لابد من إعادة تلك الأمجاد، وذلك من خلال تقديم الدعم المتواصل للثقافة، والمجلات الثقافية، وكذلك زيادة المساحة للتعبير الجاد، والمؤسس من قبل الكتاب والمثقفين، لأن المجلات الثقافية، في حاجة إلى دعم آخر، غير الدعم المادي، فالدعم المادي وحده لا يمكن أن يقدم البديل عن الخبرات الإنسانية، ومادام الهدف هو خدمة الثقافة العربية، ومادام الهدف هو مواصلة التواصل الثقافي العربي، وإحياء الدور الريادي لحركة الثقافة العربية التي تألقت من خلال المجلات الثقافية، التي كانت تصدر في تلك الفترة، نرى أن تتكاتف الجهود لتطوير المجلات الثقافية، التي مازالت تواصل صدورها حتى الآن، حتى لا نكرر خطأ التجارب السابقة، لأن بقاء هذه المجلات، والعمل على تطويرها، مهمان جدًا، فهي الأمل الوحي، والشمعة التي نوقدها كلما احتجنا إلى النور والضياء، ومن هنا فإن المسألة تبدو في غاية الأهمية، باعتبار أن هذه المجلات لها دور في خدمة الأدباء والثقافة عبر مختلف الدروب والمسارات.

إضاءة على التجربة الأدبية والثقافية في عمان

تعتبر التجربة الأدبية والثقافية، لأي بلد، مثار اهتمام وإعجاب الشعوب والدول، خصوصًا، إذا كان لهذه التجربة نتائج ملموسة على صعيد التقدم الثقافي. وقد كان للتجربة الأدبية والثقافية في عمان، نصيب من التطور، يتمثل ذلك من خلال المؤسسات الأدبية والثقافية: كالناديْ الثقافي والمنتدى الأدبي والجمعيات مثل الجمعية العمانية للكتاب والأدباء وجمعية السينما وجمعية الصحفيين والجمعية العمانية للفنون التشكيلية والتصوير إضافة إلى الملاحق الثقافية التي تصدر عن الصحافة، والمجلات الثقافية مثل مجلة نزوى ومجلة البرواز، كل ذلك كان له دوره المباشر والمؤثر في تفعيل الحركة الثقافية في عمان، ومن خلفها الأقلام العمانية، التي كان لها دورها المؤثر في هذا التحول، وفي الواقع، إن المسار التاريخي والوعي العقلي والتقدم المعرفي لأي دولة، مرتبط بالإنجاز الثقافي والقدرة الادارية والابداعية التي يمكن أن تقدمها فئة معينة، أو نخبة تملك الأدوات، والمقومات التي تمكنها من تأدية رسالتها، ومن ثم تحريك المواهب المبدعة والوصول بها إلى المكانة اللائقة عبر الخارطة الثقافية، ولعامل التراث أيًا كان نوعه،

صلة ودور رئيسي بما يتعلق بربط الماضي البعيد بالحاضر المشرق، وبلادنا عمان، باعتبارها البلد التي تملك أكثر من غيرها هذا التراث، بمختلف عناصره الثقافية والفكرية، مدعوة اليوم إلى مشاركة أكثر فاعلية وبروزًا على صعيد المجال الأدبي والثقافي، وهذا الدور في الواقع لا يأتي من فراغ، وإنما عن طريق المؤسسات الثقافية والنخبة المثقفة، وكل مثقف لديه القدرة على العطاء فيما يتعلق ببلورة المفهوم الثقافي والعمل الإبداعي الخلاق، فالتقدم الثقافي لا يمكن أن يستمر، إلا من خلال العطاء المتواصل من قبل المهتمين بالكتابة سواء الذين يكتبون المقالة أو الشعر أو النثر أو غير ذلك من الأعمال التي يمكن أن تؤسس وتعطي رافدًا مساعدًا على تنشيط الحركة الإبداعية خصوصًا إذا ما توافر لها المناخ الملائم، ومسألة التقدم والتطور الثقافي، لا تقاس في الواقع بالكم وإنما بالكيف، لأن الجانب الإبداعي أكبر وأشمل من كل المظاهر، فمن هنا إذن ومن خلال هذا الموقف المبدئي، يمكن أن يستمر العطاء، خصوصًا إذا اتخذ منحى من شأنه أن يعزز مكانة الثقافة ويصل بها إلى أرقى المستويات. وهناك عنصر مهم أيضًا لا يمكن إغفاله وهو أن يكون هناك تواصل مستمر، بين المثقفين والأدباء بين الحين والآخر، نظرًا لما في ذلك من دور فعال في تنشيط عملية الإبداع، وكم يسعدنا أن نرى نوعًا من التفاعل مع المواضيع الأدبية، والثقافية، من خلال اتباع أسلوب النقد الموضوعي والتحليل والتقييم لكل عمل أدبي، حيث إن وجود مثل هذا التفاعل، بشكل متواصل، يعطي المناخ الثقافي خصوصية متميزة وحافزًا قويًا على

العطاء من قبل المهتمين بالأدب والثقافة، الأمر الذي سيكون له مردود إيجابي على صعيد تحقيق الإنجاز التاريخي في بنية الرصيد الأدبي والثقافي، وإذا ما تتبعنا تاريخ الحركة الأدبية والثقافية خلال الحقبة الزمنية الماضية، نجد أن العوامل التي ساعدت على ازدهار الأدب خلال تلك الفترة تتركز في عدة عوامل، منها الدور الطليعي والريادي الذي قامت به الصالونات الأدبية التي اتبعها الأدباء العرب، بالإضافة إلى بعض المدارس الأدبية التي أسسها أدباء المهجر، كجبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وإيليا أبو ماضي، وغيرهم من الأدباء العمالقة الذين أثروا الأدب والثقافة العربية بمؤلفاتهم الرائعة، حيث كانت تعتبر تلك الصالونات الأدبية بمثابة محطة التقاء بين هؤلاء الأدباء، أما العوامل الأخرى التي ساهمت في ازدهار الحركة الأدبية هو المستوى المتطور الذي وصل إليه الأدب والذي كان يجمع بين الكلاسيكية والحداثة وذلك في محاولة لربط الأصالة بالمعاصرة، الأصالة بكل ما تعنيه من تاريخ مؤثر وعراقة متأصلة متميزة، والمعاصرة التي تستمد جذورها من ثراء ذلك التاريخ العظيم، ومن هنا فإن الجانب الإبداعي والتقدم الثقافي لا يمكن في الواقع أن ياخذ ذلك المسار لقيادة الفكر التنويري وحركة التنوير، إذا لم يكن هناك تفاعل مستمر وعطاء متواصل ومتميز في مختلف العناصر الأدبية، فالإبداع، وحده القادر على تحريك الجمود، ووحده القادر على صنع المستقبل الثقافي المشرق، وبغير ذلك تصبح الثقافة والحياة الأدبية معًا في مناخ متذبذب وغير مستقر، عندئذ لا يمكن بأي حال من

الأحوال، تصحيح الخطأ لأن مرحلة العطاء الإبداعي، لها فترة زمنية، فإذا لم تستغل، يصبح الأمل ضئيلًا في اللحاق بركب التطور، ويبقى الرهان على المؤسسات الثقافية والأدبية، حيث مازلنا ننتظر من هذه المؤسسات، دورًا رياديًا أكبر، في رفد الحركة الأدبية والثقافية التي تعيشها عمان، سواء كان هذا الدور من خلال إقامة الندوات ومعارض الكتب أو العروض السينمائية، أو إصدار مجلة واستقطاب المواهب والكتاب والأدباء والشعراء والفنانين التشكيليين وغيرهم، حيث إنه من شأن تلك المناشط تفعيل وتحريك المناخ الأدبي والثقافي، فضلًا عن أنه يوفر مناخًا ملائمًا للمبدعين للتحاور ومناقشة كل ما يهم الأمور الأدبية والثقافية للوصول بها إلى مراحل التقدم والتطور، إضافة إلى ذلك فإنه يضع حلًا للقضاء على ظاهرة الفراغ، الذي مازال يؤرق الكثير من المبدعين والكتاب، ويبدد طاقاتهم ولكننا على ثقة بأن هناك أملًا سوف يبعث في المستقبل القريب، وسوف يكون له دور في تنشيط الحركة الإبداعية التي تشهدها عمان. وقد أصبح المشهد اليوم أكثر وضوحًا واستطاع أن يحقق إلى حد ما جزءًا من الطموح والحلم الذي يتمثل في الاصدارات المتنوعة في الشعر والرواية والدراسات النقدية والقصة والمسرح. إضافة إلى الدور الكبير الذي أصبحت تضطلع به المؤسسات الأدبية والثقافية التي أشرنا إليها سلفًا في تبني وطباعة مؤلفات الكتاب العمانيين والكتاب العرب المقيمين في عمان وذلك عن طريق دور النشر الكبيرة المعروفة في عالمنا العربي وترويجها في المعارض. كما تتولى المؤسسات الأدبية

والثقافية إقامة الفعاليات والأسابيع الثقافية داخل السلطنة وخارجها بغية التعريف بثقافة عمان حاضرًا وماضيًا واستقطاب الأدباء والمبدعين العرب لإلقاء محاضراتهم. وتم أخيرًا استحداث جائزة لأفضل الاصدارات باسم جائزة السلطان قابوس للفنون والآداب وقد تم رصد مبلغ كبير لهذه الجائزة. مما يعد تعزيزًا قويًا للارتقاء بالأدب والثقافة العمانية ويعيد المجد الذهبي إلى الثقافة العمانية كما كانت في غابر الأزمان. وكما يقول أحمد الفلاحي: «ومن مايقرب من ألفين من السنين أو يزيد قليلًا أصبحت عمان تتكلم العربية الشمالية كما نتكلمها اليوم وقد شاع فيها الأدب نثرًا وشعرًا مثلها مثل شقيقاتها من ديار العرب. وقد انفردت عمان وحدها بثلاث من أسواق العرب العشر أي مايقرب من ثلث من تلك الأسواق كما نعلم هي مصانع للثقافة في تلك الأزمنة». وفي مكان آخر يشير الفلاحي أيضًا إلى مقولة للجاحظ يرد بها على موقف استفزه من سائل ربما أراد أن ينتقص من مكانة عمان الأدبية «ربما سمعت من لاعلم له يقول ومن أين لأهل عمان البيان وهل يعدون لبلد واحد من الخطباء والبلغاء مايعدون لعمان»[1].

الهوامش

(1) أحمد الفلاحي، **مع الأدب العماني**، دار الريس 2011 ص120، 122.

البعد الجمالي في الشعر

حينما يتبدى لنا المشهد الشعري بجمالياته من إيقاع وموسيقى وكلمات معبرة ومؤثرة تقودنا الذاكرة من جديد، إلى رسم ملامح هذا الشعر أو هذا العبقري الخالد، الذي مازالت أصداؤه تفوح بأريج الماضي راسمًا للأجيال صورة حية للحياة بكل تفاصيلها اليومية، وتناقضاتها، لقد كان هذا الشعر وما يزال أحد الأعمدة الكبيرة في تاريخ الأدب العربي ناقلًا ومدونًا ومسجلًا وموثقًا، كما تعلق بوجدان وأحاسيس الناس عبر مختلف مراحل الحضارات وعبر مختلف مراحل الأدب العربي في تألقه وازدهاره، وفي تراجعه وانكساراته، هكذا كان الشعر في الواقع، لذلك ومن خلال موضوعنا هذا نريد أن نحتفي بهذا الشعر ونؤكد له تواصلنا معه من خلال الكلمة الجميلة المعبرة واللغة الشاعرية التي يكون لها وقع الصدى. كما نريد أن نزيح عنه البراقع والجلابيب التي وضعت حول لوحاته الجميلة. هكذا أصبح الشعر اليوم حصانًا بدون فارس وكلمات متفرقة هنا وهناك ليس لها بداية أو نهاية وليس لها هدف محدد أو أو قضية يناضل من أجلها، وحينما يكون الشعر بهذا المستوى وبهذه اللغة الهمجية الهامشية وبشيء من عدم

المبالاة، نكون قد قضينا على تراثنا ومكتسباتنا، ذلك المشروع الكبير، وذلك الينبوع المتدفق بالعطاء الذي كان له تأثيره في رفد الأدب والثقافة والفكر التي نعيشها اليوم بكل مصادرها وروافدها وبكل أسمائها المعروفة، من هنا إذن تبدو المتابعة ضرورية لاستشفاف صورة الواقع الحقيقي للشعر ودوره في تحريك إيقاع المجتمع، هذا التوصيف في الواقع يعتبر من المشاهد الكبيرة في السياق الأدبي والإبداعي، حتى نستطيع أن نخلق قاعدة كبيرة، وتواصلًا بين الشعر والمجتمع. والشعر له دور كبير في الحياة، فهو مثل الماء والهواء، ومثل كل المهن، نظرًا إلى ما يتمتع به من جماليات وكلمات في غاية الروعة والجمال، وأيضًا بما يحمله من معان وروح وثابة لاستقراء المستقبل.

إذا الشّعر لم يَهْزُزْكَ عند سماعِهِ
فليس خليقًا أن يقال له شعرُ

بهذا المقطع الشعري في الواقع، تبدو الصورة جلية وأكثر وضوحًا، حول أهمية الارتقاء بالشعر ووضعه في المكانة اللائقة، فالذي نلاحظه أن من لهم اهتمامات بكتابة الشعر، ينجرفون إلى العبارات السهلة والبسيطة التي غالبًا ما تكون فجة وليس لها هوية، هذه الكتابات الممجوجة والمهزوزة، لا يمكنها أن تؤسس أي جديد للشعر، بقدر ما هي تسيء وترجع بهذا الشعر إلى قرون حجرية جديدة. فلم تكن الحداثة بهذا المستوى، ولم تكن معول هدم للشعر وللأدب العربي، وإنما هي إضاءة وتطوير للغة الشعرية

والأدبية. من هنا إذن تبدو الصورة مغايرة لإشكالية الجدل حول أهمية من يستطيع أن يؤسس أو يضيف رصيدًا جديدًا للشعر العربي، هذا الجدل في الواقع هو الذي يقودنا في النهاية إلى تحقيق الانتصار الكبير للمذهب الحداثوي الجديد، أو الشعر العمودي، وهي قضية مهمة يجب الاهتمام بها من قبل النقاد. فالنقاد لهم دور في تقويم ما يكتب من شعر وأدب، وذلك تجنبًا لأي تجاوزات خاطئة من قبل المهتمين بكتابة الشعر وغيره، فالمتابعة من قبل النقاد مهمة وضرورية في تفعيل وتحريك الساحة الثقافية، وغير ذلك، تصبح الحياة الأدبية والمناخ الثقافي، في تراجع وتذبذب، قد يصل بالإبداع والمبدعين إلى مرحلة من اليأس والانكسار، باعتبار أن قضايا الشعر والأدب، خصوصًا في ظل التقدم الكبير الذي يشهده المشروع الثقافي في وقتنا الحالي من جميع الجوانب: الاجتماعية، والعلمية، والثقافية وغيرها. هذا المشروع النهضوي في الواقع، لابد من إعادة النظر فيه حتى يأخذ مساره الصحيح، نحن الذين بنينا أمجادنا على تراث شعري كبير منذ آلاف السنين، لابد وأن تكون القدوة لذلك النهج، لقد حان الوقت لأن نأخذ المسألة الأدبية بجدية فهي قضيتنا الأساسية وهي مستقبلنا قبل كل شيء ولذلك ينبغي أن تكون هناك فلسفة خاصة ومنهاج عمل عند التعامل مع الشعر. فيفترض أن تكون هناك أساسيات عند التعامل مع الشعر: اللغة الشعرية كقوة التعبير، وجمال الألفاظ، وعمق

المعاني، وتناسق الأصوات إلى جانب المكون الأساسي وهو الوزن كما يقول مصطفى حركات[1]. هذه الأساسيات يجب أن تكون موجودة في القصيدة. فنحن مازلنا ننتظر انفجارًا في التعبير وفي كتابة الشعر عمومًا، حتى نعطي انطباعًا للقارىء، يستطيع من خلاله أن يتفاعل مع مؤثرات العبارات الشعرية لأننا في الواقع أصبحنا الآن نخوض معركة أدبية وثقافية حقيقية، وهي بداية المشوار، فيجب أن نكون أو لا نكون، لأن العالم يتقدم ثقافيًا لا نقول يوميًا أو سنويًا، وإنما ثانية بعد ثانية. الشيء الآخر أننا نحن العرب أو مجتمعنا العربي الذي يغلب عليه الطابع القبلي، مازال يحمل تناقضات اجتماعية شتى، فما زالت المعركة لم تهدأ بعد بين العقلية السلفية التي ترى في الشعر العمودي خير تمثيل للشعر العربي والعقلية التي تتبنى المشروع النهضوي، والتي ترى في الشعر الحديث أكثر إشراقًا وانفتاحًا. هذا التناقض في الواقع وهذه المفارقات، تحتم علينا أن نكون واقعيين في تعاملنا مع الكتابة، سواء كانت شعرًا أو غيره من فنون الكتابة. لأن الكتابة يجب أن تؤسس مشروعًا نهضويًا آخر ومغايرًا. كما يقول الكاتب والناقد مصطفى خضر[2]. هكذا سيستعيد مشروع القصيدة العربية الحديثة فرضياته وتساؤلاته القديمة والجديدة بين مراجعة نقدية وأخرى، إذ إن المستوى الرئيسي للصراع لم يزل قائمًا بين نموذج سلفي تقليدي يستحضر رؤيته ورموزه الموروثة أو يدعيها ونموذج نهضوي يبحث عن هويته فيقترح بدائل عقلية

وروحية ومجتمعية، يحاول اكتشافها في الوقائع والتاريخ وقد تبشر ميول أو اتجاهات نقدية أو شعرية بنموذج إبداعي بين مرحلة وأخرى ولكنها تحاول أن تجد جذرًا تاريخيًا غائبًا أو حاضرًا تنتمي إليه يدل على القيمة المؤثرة التي ماتزال تتضمنها الذاكرة الشعرية العربية عندما سيستأنف أي مشروع شعري بحثه عن ذاته. إذن لابد وأن يكون هناك دافع حقيقي وعزيمة وإصرار على مواصلة العطاء الشعري. وذلك من خلال مواصلة البحث والاطلاع، على أهم ما يكتب وينشر من شعر، حتى تكون لدينا ركيزة معرفية، وأهداف محددة تمكننا من الوصول إلى قائمة الأسماء الكبيرة. بهذه المقومات وحدها نستطيع أن نرقى بالإمكانيات الشعرية.

الأدب والمجتمع

لم يكن الأدب في يوم من الأيام منعزلًا أو منفصلًا عن المجتمع، بل كان دائمًا بمثابة الإعلام، الذي يعبر عن القبيلة. فالمجتمع الذي تترسخ فيه مختلف الاتجاهات، والأفكار بما فيه من المآثر التاريخية، والحضارية والثقافية، والفكرية، له دور مؤثر في عملية البناء، وفي بلورة الفكر الإنساني، إلى واقع استطاع الإنسان من خلاله، أن يحقق أو يؤسس لنفسه مكانة في المجتمع. ولذلك فإن المعطيات التاريخية، للتمازج الإنساني والمجتمعي، أدت إلى إثراء التجربة الإبداعية لدى الإنسان، وفي مختلف المراحل

الأدبية، والثقافية، والسياسية والاجتماعية والفكرية وغيرها من روافد الإبداع، وعندما نرجع إلى الدور الفاعل للبيئة والمجتمع، في رفد الأدب ومقومات حركة الإبداع وتنويره، فإنما يعود ذلك إلى إرجاع الأدب إلى ولادته الطبيعية، أي بمعنى أنه ابن بيئته ومجتمعه، وإذا ما نظرنا إلى العصور السابقة نجد أن القبائل العربية، وبالتحديد منذ العصر الجاهلي، كانت تقيم احتفالًا كبيرًا، عندما يولد شاعر لدى القبيلة، نظرًا إلى ما للشعر من دور فعال ومؤثر في تلك الفترة، حيث الصراعات القبلية، وتأصيل المذهبية، وخصوصًا إذا كان هذا الشعر الحديث الولادة حاذقًا ومتمكنًا، وموهوبًا، فإن مكانته بين القبيلة عالية، لكونه الناطق، الذي يعبر عن القبيلة، «يقول الشاعر»:

وما أنا إلا من غزيّة إن غوتْ

غويتُ وإن ترشد غزيّةُ أرشدِ

وواقعنا الراهن لم يكن بعيدًا عن العصور السابقة، بل هو استمرار لتلك المآثر، ثقافة، وتراثًا فكثير من الأدباء، شعراء كانوا أو روائيين، أو قُصّاصًا، لم تخل أعمالهم، من الأفكار والرؤى البيئية، والاجتماعية حتى أصبحت أعمالهم تحوز تعاطف الجماهير والنخبة المثقفة، ومن هنا يتضح مدى الدور الفعال الذي يؤديه كل من الأدب والمجتمع. وإذا رجعنا إلى التاريخ القديم، وتلك الحقب الإبداعية الكلاسيكية المتواصلة نجد أن وراء كل حضارة مشرقة، رجالًا عظماء، كان لهم دورهم، وبصماتهم، في

مجال التقدم العلمي والثقافي، والتاريخي، والفلسفة والعلوم وغيرها، وما التراث الفكري، والفسلفي الإسلامي واليوناني الأخير إلا شاهد على تلك الإنجازات العظيمة، لذلك فإن مفهوم وفلسفة الدور الأدبي في مجتمع ما، يجب أن يقوم على تلك الأسس التي سار عليها الثراث الفكري الكلاسيكي في تلك القرون الماضية، ويعتبر عامل الوعي الأدبي، والثقافي مهمًا لتطوير المجتمع، حتى يستطيع أن يؤدي دوره بالكامل جنبًا إلى جنب مع الخطاب الثقافي السائد الآن، والحضارات القديمة، لم يسمع صوتها ولم تنل السمعة والشهرة، إلا عندما اهتمت بالعلم والثقافة، حتى استطاعت أن تكوّن لها سجلًا وإرثًا أدبيًا وفكريًا عظيمًا، يعد الآن مرجعًا لكثير من الدول فإلى جانب الحضارة الإسلامية بتراثها العظيم، هناك أيضًا الحضارة اليونانية، والفارسية، والإغريقية، وبالرغم من ذلك الدور الذي لعبته تلك الحضارات في تلك العصور الذهبية، إذا صح هذا التعبير، إلا أن هناك تبقى مسألة، يجب طرحها بأمانة، وهي أن لكل زمان ظروفًا معينة، فتوافر المناخ الملائم ووجود العلماء والمفكرين، والفلاسفة وتوافر المطابع وازدهار الثقافة، كل ذلك بدون شك يعتبر من العوامل المهمة، في عملية إثراء العمل الإبداعي، والفكري، ثم تأتي بعد ذلك الفكرة المطروحة فيما يتعلق بتناول كل موضوع أيهما أهم والذي له علاقة بالجوانب الاجتماعية، والعلمية، والثقافية، فالتقدم الثقافي وأهمية

الدور الاجتماعي للأدب، لا يتوقفان عند مشروع إبداعي معين، كتابة قصة حب أو رحلة إلى مكان ما، وإنما في بلورة الأهداف والتجارب المجتمعية، التي يمكن من خلالها أن تناقش قضية تفيد المجتمع وتفيد الإنسان. وفي عصرنا الراهن حيث المفارقات الكبيرة، والأفكار الاجتماعية المشحونة بمختلف أنواع المظاهر الحياتية، فإن الدور الأدبي في هذه الحالة يعتبر من أهم الركائز الأساسي على صعيد بلورة الهموم الاجتماعية والمشكلات الإنسانية، وذلك في قالب أدبي من شأنه أن يبلور الواقع الاجتماعي والطموحات الإنسانية، فالتوهج المعرفي وتطوير الأطر الثقافية، والأدبية من شعر ورواية، وقصة من شأنها أن تضيء الشموع في المجتمع، ومن شأنها أن تجعل من الظلام نجومًا تتلألأ في سمائه، والحضارات القديمة في الواقع تعطينا صورة مشرقة عن دور الإنسان في تلك الفترة، وما قام به من أعمال رائدة، ثقافيًا وعمليًا ومجتمعيًا، حتى أضحت تلك الحضارات شعلة تضيء درب المسيرة الإنسانية، وذلك بفضل الإرث الحضاري الرائع من أدب وفنون وآثار في غاية الروعة والجمال. ومن هنا فإن المسافة البعيدة من الممكن اختصارها إذا أريد ذلك، وكذلك في الواقع الأدب بإمكانه أن يضيء الشموع، وبإمكانه أن يعيد قولبة التاريخ الإبداعي العظيم الذي سار عليه الأدب الكلاسيكي العظيم، ولذلك فإن الدور الاجتماعي للأدب لا يقتصر في الواقع على مرحلة معينة

تاريخية كانت، أو اجتماعية، إنما يأتي مع الظروف التي يمكن من خلالها أن تبلور الموقف الأدبي بمفهوم آخر. وكم رأينا عند إشارتنا إلى حقب الازدهار الإبداعي لتلك الحضارات والشعوب والأعمال العظيمة التي قدمتها في مختلف المجالات الإنسانية مما يعد الآن مرجعًا لكثير من الباحثين والمهتمين بالعلوم والفلسفة وغيرها، وفي عصرنا الراهن الذي أصبح يواجه اليوم جميع أنواع المؤثرات الخارجية، كالغزو الفضائي، ووسائل الاتصال الحديثة وغيرها من الإفرازات ذات التحولات «الدراماتيكية» على الصعيد المجتمعي، والإنساني بصفة خاصة، فإن دور الأدب في هذه الحالة، يجب أن يكون فاعلًا ومؤثرًا لا دورًا استثنائيًا يساهم في حجب الرؤية والمعلومات عن المجتمع، فالأدب باعتباره رسالة يجب أن يكون له صدى واسع يساهم في حملها الأديب، والمثقف، والكاتب، عن طريق بلورة المواقف، وترجمة الأهداف إلى واقع تخدم الإنسان وترقى بالمجتمع. فالمجتمع لا يمكن أن يقف على رجليه إذا لم يتوافر له الوعي الكافي، والوعي لا يأتي عن طريق الدعاية والمراوغة، وإنما يأتي من خلال الفكر النير وعصارة الثقافة والتجربة لدى الكاتب المبدع والمفكر العقلاني. ولذلك فإن دور الأديب والكاتب والمفكر والمثقف في مواجهة تلك المؤثرات الخارجية هو أن يساهم قدر الإمكان في تحليل النتائج التي من الممكن أن تجلبها تلك المؤثرات الخاريجة بما فيها من أضرار وإساءة إلى

المجتمع، ومن هنا فإن الحديث عن الدور الأدبي أو دور الأدب، على الصعيد الاجتماعي يصعب اختصاره أو التحدث عنه في صفحات قليلة، في ظل المفارقات والتحولات الثقافية، والسياسية والاجتماعية التي يشهدها العالم اليوم.

الهوامش

(1) مصطفى حركات، **أوزان الشعر**، ص6.
(2) مصطفى خصر، **الشعر والهوية**.

الكتابة
التأثير والتأثر

لم تكن الكتابة في يوم من الأيام، مجرد هواية أو موهبة يمارسها الكاتب، بين لحظة وأخرى، كتعبير شفهي لاستنهاض أو لتفريغ ما بالذات، وإنما هي في الواقع فلسفة عميقة، لا يعرف مدى أهميتها، إلا الكاتب المبدع والكاتب الواعي، الذي يملك فلسفة الكتابة، وتوجهًا يستطيع من خلاله أن يواجه، مختلف المؤثرات الثقافية على صعيد التأثير في المجتمع، فالمجتمع اليوم سواء في وطننا العربي، أو العالم الخارجي أصبح يعتمد على مزايا، وفلسفات خاصة، نظرًا إلى وجود التعدد الثقافي والفكري، وأيضًا التغيير الذي أحدثته التكنولوجيا، على صعيد بلورة العمل الثقافي والاجتماعي، ومن هنا ونتيجة لتلك المتغيرات، أصبحت الكتابة تمر بمنعطفات بالغة التعقيد، الأمر الذي يتطلب من الكاتب أن تكون لديه ركيزة معرفية، لإثراء عملية الإبداع، وأيضًا إلمامه بما حوله سواء كان ذلك على صعيد التجدد الثقافي والفكري أو على صعيد المشاركة في المؤتمرات، والندوات الأدبية والثقافية، لأن العملية الإبداعية أصبحت تأخذ توجهًا مغايرًا في ظل التقدم

الظاهر الآن، وفي ظل هذا التغاير لابد من فلسفة جديدة يتبعها الكاتب تتحدد في ثلاث نقاط: التركيز على أهمية القضية المطروحة من مختلف الجوانب، مع مراعاة أن تكون هذه القضية ذات جدوى، بالنسبة إلى القارىء. سواء كان ذلك في مجال الأدب أو غيره من المجالات، والتركيز على أن يكون أسلوب الكتابة متطورًا فنيًا بحيث يستطيع أن يعطي تأثيرًا، ويحدث تواصلًا بين القارى والكاتب. أهمية اختيار المضمون في العمل الكتابي على أن يكون هذا المضمون ذا بعد ناضج، وفلسفة متطورة في مجال العمل الإبداعي، وإذا ما تحققت هذه النقاط فإنها بالتأكيد سوف تنعكس من خلالها أهم المواقف الايجابية في مجال العمل الإبداعي والفكري خصوصًا على صعيد التخاطب المجتمعي والجماهيري. والكتابة في الواقع بمختلف مجالاتها، تحتاج إلى تجربة طويلة سواء كانت هذه التجربة، في مجال العمل الإبداعي والفكري، أو على صعيد التجربة الحياتية فلقب أديب، شاعر، قاص، روائي، تأتي بعد تجربة طويلة، هكذا العمل الإبداعي ديناميكي ولا يمكن أن يرتبط أبدًا بعوامل مظهرية وشكلانية، وهناك في الواقع نماذج لكبار المبدعين سواء كانوا عربًا أو أوروبيين مروا بتجارب حياتيه قاسية تحملوا من خلالها جميع أنواع الظروف.. التي تتحدى كل أديب أو كاتب، ولكن كان لهذه الظروف نتائج إيجابية، حيث استطاعت أن تفرز لغة إبداعية متميزة ومؤثرة على صعيد الوصول برسالة الأدب إلى مكانة من شأنها أن تنير الطريق ومن شأنها أن تبلور مختلف

الاتجاهات في الأوساط الاجتماعية. ولذلك فإن دور الكتابة دائمًا وأبدًا دور تنويري ودور إبداعي أي بمعنى هي جزء من التاريخ والتراث الإنساني.. هذه الكتابة التي تعلق بها وجدان الملايين من البشر، واعتصرت قلوبهم وعقولهم، من أجلها، حتى أصبحوا رموزًا، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تهمش مهما تنوعت الحضارات واختلفت التوجهات، أو دخلت عصور التطور والتقدم، وإلا أصبحت الشعوب في أشد القهر والتخلف، لماذا؟

لأن هوية وتراث أي شعب، لابد وأن تستند إلى مكاسب أدبية وثقافية وهذان العنصران لا يتحققان إلا من خلال التواصل المستمر مع الكتابة. وفي عصرنا الراهن الذي أصبحت فيه الهوية منعدمة بسبب فرط المظاهر الجاهزة، والتغني بأنشودة التطور الأمر الذي أصبحت معه الثقافة العربية متلبسة بثقافة أخرى أجنبية، هذه المفارقات الغريبة والعجيبة عندما يصل بنا الحال إلى حد تقليد ثقافة الآخر الأجنبي تصبح المسألة غير لائقة وكأننا لا نملك أي مكاسب ثقافية، أو أدبية أو تاريخية أو كأننا لا نملك أدنى ثقافة قومية، تلك الثقافة التي تأسست على ركائز وعلى أعمدة صلبة عبر تراثنا الأدبي الخالد.

محاولة لفهم الكتابة الجديدة

يأتي مشروع الأدب الحداثي، ضمن مجموعة من التيارات، التي أعطت للتجربة الأدبية، بعدًا وخصوصية متميزة، لأسلوب الكتابة واللغة، وأيضًا من حيث طرح الفكرة، والمضمون. ونتيجة لذلك أصبح للكتابة في وقتنا الراهن، أساليب متعددة كالسوريالية، وغيرها من المفاهيم والمصطلحات الحديثة، والكاتب عندما يريد أن يغامر باسمه وحينما يريد أن يصبح له اسم أدبي في الساحة الأدبية، يجب عليه أن لا يكون غامضًا إلى الحد الذي يتعدى الاستخفاف بالعقل. وإنما يأخذ جانبًا وسطًا بحيث يستطيع المتلقي أن يتفاعل معه كما يجب عليه أن لا يكون مباشرًا عند تناوله قضية معينة حتى لا يجعل أسلوبه يأخذ الصفة الاستهلاكية، فالوسطية دائمًا هي الأنجح.. أما الكاتب الذي يتبنى منهجًا غامضًا في الكتابة فمعنى ذلك أن هذا الكاتب ليس لديه قضية يطرحها وبالتالي لا يملك أي موقف يؤهله لأن يكون محل تقدير من قبل المتلقي والمجتمع. ونتيجة لذلك يصبح المشروع الثقافي غير متوازن وغير مكتمل لأنه إذا لم يخلق الكاتب أو الأديب قضية تثير الرأي العام أو يطرح خطة أو مشروعًا لتطوير

التجربة الأدبية والثقافية وغيرها من التجارب، معنى ذلك أنه لا حاجة لأن يطرح كلامًا غامضًا ليكون عبئًا وهراء أمام الشريحة المثقفة التي تنتظر بشغف إبداعًا حقيقيًا يتجاوز كل ما هو غث ومخلفات المحارق. وكل ما يشكل عائقًا، أمام تقدم المشروع النهضوي الثقافي، ونحن مازلنا نراهن على أن نرى كتابة حقيقية، لأن ذلك يعني أننا نتقدم إلى الأمام ونخطو خطوات لبناء الثقافة، ولبناء الأدب، وكل ما ينضوي تحت لوائها. يقول الكاتب والمفكر والأديب المعروف فيصل دراج[1]: «إن ارتفاع موج أفكار معينة لا يقدم برهان على صحتها، وفي الواقع العربي اليوم تعلو أفكار وتتراجع أخرى، بل تنتصر أفكار وتنهزم أخرى.. والاقتراب من انتصار فكر في واقع مهزوم يشي بضحك أسود، وبضاحك جدير بالرثاء» والكتابة الحقيقية تعلن تمردها من أول لحظة ولا يمكن أن يقف في طريقها أي حاجز خشبي، أو أي مؤثر آخر يأتي من خارج الإطار الثقافي، ولعل التجارب الإبداعية الكبيرة لكبار المبدعين التي مازالت المطابع ودور النشر تلفظها بشكل يومي، تلقي بأصدائها وتعطينا براهين قاطعة على مدى عمق التجربة وعلى مدى الهم والمعاناة، في سبيل نشر الفكر الجاد للقارىء في أي مكان.. غير مبالين بخطورة وعواقب ردود الفعل، من قبل النقاد، ونتيجة لتلك الجرأة والشجاعة المنقطعة النظير كان لهؤلاء المبدعين دورهم النبيل واحترامهم من قبل المجتمع، كما كانت لهم خصوصيتهم،

ضمن النظام المعرفي تشي بمتعة ليس لها حدود، والكتابة في الواقع قبل أن تكون هواية يمارسها كل من يريد أن يجريها هي مبدأ صعب جدًا، ومسؤولية لها دورها المؤثر، خصوصًا حينما يكون لها مجايلوها المتنورون، ونحن في وقتنا الراهن في حاجة إلى من يقدم الفن الرفيع في مجال الكتابة بأنواعها، وفي حاجة أيضًا لمن يقدم الجديد والمفيد، ويساهم في تطوير الحركة الثقافية التي نعيشها بفكر متنور وليس بفكر متعصب وهادم، وأن يأتي تقويمنا للتجارب الإبداعية بأسلوب لا يخلو من المؤازرة والتشجيع، وفي الوقت نفسه لا يخرج عن إطار النص الإبداعي أيًا كان نوعه ولونه. . لأن تطور الثقافة يأتي من خلال التشجيع والنقد البناء الذي يساهم في تحريك المناخ الثقافي والوصول بالثقافة إلى مشارف المجد، وعندما يكون هناك التفاعل وردود الفعل حول الكتابات التي تكتب، يكون الإبداع والتجديد وعن طريقها يتم تثبيت المناخ الثقافي، من هنا في الواقع تبرز هوية الشعوب وعطاؤها في مختلف جماليات الفن، والكتابة دائمًا وأبدًا هي ديدن الشعوب المتحضرة، وهي المتنفس في خضم التراكمات اليومية وفي مواجهة كل الظروف، ولذلك فإن تقويم أعمال الآخرين بأسلوب قاس وسطحي يبدو من باب المغامرة قياسًا بعمر الإبداع الذي لا يتعدى بضع سنوات، فتقويم أي عمل أدبي يجب أن يأتي بعد تجربة طويلة من الإبداع المتواصل وبعد حركة ازدهار ثقافية ومن خلالها تتبلور

مخرجات المجتمع. كيف أصبح المجتمع وما هي الشريحة التي يعول عليها في عملية بناء الشخصية المثقفة، بعد ذلك يتضح أي مسار نحن فيه، والكتابة هي دائمًا مرتبطة بالمجتمع فتطورها من تطور المجتمع وتراجعها من تراجعه، ونتيجة لذلك فإن الكتابة يجب أن تكون لها هويتها وشخصيتها التي تعطيها حق الريادة حينما تكمن في نوعية الإصدارات التي تصدر من قبل المهتمين بالنواحي الفكرية والثقافية في المجتمع، سواء كانت هذه الإصدارات في الشعر أو في القصة أو الرواية أو في الدراسات والبحوث والفنون والفلسفة وغيرها من الأعمال الفكرية.. لأن مجمل تلك الإصدارات تعتبر عنوان وهوية الشريحة المثقفة. والمثل العربي يقول «من ألف فقد استهدف» بهذا المفهوم يتضح أن كل من لديه مشروع إصدار كتاب أن يقدم على إصدار كتابه بعد سنوات طويلة وبعد مراجعة دقيقة وعميقة حتى يستطيع أن يؤكد حضوره في الساحة الثقافية ويكون ذا فائدة للمجتمع ويساهم في تطوير البنية الثقافية والأدبية بمختلف عناصرها وروافدها. يقول الناقد الدكتور عبد الله الغذامي[2]: «من هنا يكون الدخول إلى النص هو مسعى لقلب السحر على الساحر لأنه كشف للمخبوء وتقييم للمكشوف» ونماذج الإصدارات العربية والأجنبية، تعطينا صورة حية عن مدى التطور والتقدم المعرفي والتقني الذي وصلت إليه العقول العربية والأجنبية في هذا المجال، والذي يتبلور مفهومه حول جدية الطرح وتحليل القضايا

بشكل متعمق وبفكر مستنير، لذلك كان لها أصداؤها في مجتمعاتهم، الأمر الذي ساهم في ازدهار الحركة الثقافية بمختلف أنواعها، من هنا إذن في الواقع يتقدم المشروع الثقافي وهكذا تتحق الآمال الكبيرة التي مازال يطول انتظارها.

الهوامش

(1) فيصل دراج، مقدمة **هوامش ثقافية** لسعد الله ونوس.

(2) د. عبد الله الغذامي، **الكتابة ضد الكتابة**

حول الوضع الثقافي الراهن

في ظل الموقف الراهن، الذي يتصف بكثير من الغموض وبكثير من التراجع يبدو أن أسئلة ما تدور في الأذهان حول الآلية التي يمكن أن تعطي دفعة ما من شأنها أن تعيد البسمة من جديد إلى الشارع الثقافي فهل يا ترى تتشابه الأعوام في مكوناتها ومفاجآتها التي تراوح بين الأحلام الجميلة والسارة! والأحلام الملأى بالمآسي لا قدر الله! لندع الفلكيين يخبرونا بكل ذلك في أي وقت يشاؤون. والذي نريد أن نقوله هنا أن الفعل الثقافي مازال يعيش واقعًا مهزوزًا وواقعًا لا يمكن أن يشكل أي مسار أو أي إثراء يمكن الركون إليه سواء على المدى القريب، أو البعيد وعمل كهذا ليس من شأنه أن يرسخ المعنى الدلالي والمفهوميُ لتأثير العمل الثقافي بأنواعه لدى المتلقي والمجتمع، وليس من شأنه أن يخلق بنية صلبة أو يشكل محل تقدير حتى ولو أخذنا ذلك من باب المظهرية وهذا الوضع في الواقع قد تكون له عواقب وخيمة وانعكاسات سلبية من شأنها أن تطمس أي مشروع إبداعي أو موهبة تبحث عن مكان لها في المحيط الثقافي ونحن كغيرنا لا

نملك التنظير أو التفلسف الكلامي البراني، الذي يرادف التباهي بالألقاب الفنية أو التظاهر بعبارات ودية من أجل الوصول إلى اسم اجتماعي ليس هذا هو العمل الثقافي أبدًا، العمل الثقافي يجب أن يكون راسخًا على الدوام يؤثر ولا يتأثر بتفاعل مع المجتمع ويبني في المثقف الوعي والنضج هكذا العمل الإبداعي دائمًا، وعندما نثير مثل هذه المواضيع نعرف جيدًا أن الوضع الثقافي في حاجة إلى ترميم من قبل النخبة المثقفة وليس ما نريده هنا هو عمل شيء كبير يقوم به كل مثقف أو شاعر أو أديب أو قاص أو روائي وإنما المطلوب تعبئة هذا الهم المشترك وذلك من خلال المتابعة المستمرة لما ينشر وتفعيل دور الكتابة بأنواعها: في المقالة والقصة والشعر أسبوعيًا وعبر الملاحق الثقافية حتى تكون هناك حركة ثقافية ونشاط إبداعي متواصل وعندما يتحقق هذا الهدف المشترك لابد وأن تنفتح المسارات للنهوض بالثقافة إلى المستوى الذي يمكن أن يفتخر به كل فرد في المجتمع، هكذا في الواقع تتبلور الأفكار وهكذا يتجدد الحلم وتنفتح الآمال الكبيرة. ولذلك ينبغي التأكيد هنا، أن ممارسة العمل الثقافي والإبداعي يجب أن تكون على مستوى من المسؤولية وعلى قدر من الوعي، يقول الدكتور محمد الرميحي في دراسته حول واقع الثقافة في الخليج: «في الوقت الذي نشهد فيه انبثاق مؤسسات ثقافية موحدة إعلامية أو تربوية تدخلت أكثر من

أي وقت مضى في مرحلة خلجنة ثقافية إن صح التعبير أو ثقافية خليجية عربية إسلامية إنسانية نجد المصاعب تكبر بازدياد وحجم الطموح فغلبة الروح الاستهلاكية تقودنا إلى سطحية ثقافية. مجتمع ما قبل النقط كان الفن والرقص والفكر والأدب وطرائق الحياة كلها ترتبط بالحياة نفسها ولم يكن يبدعها فنان متخصص وإنما هي اجتياح الحياة ذاتها كانت هناك ملكية عامة للثقافة أن صح التعبير»[1]، ولعل هذا الكلام يعطينا دلالة واضحة على المراحل التاريخية والاجتماعية التي كان لها دورها الهام والحاسم في الحياة الثقافية في المجتمعات الخليجية فبالرغم من الحياة البسيطة التي عاشها الإنسان الخليجي في تلك الفترة ما قبل النفط والوضع المعيشي والاقتصادي المتدني إلا أنه توجد هناك روح وثابة من أجل التعلم والتثقف والبحث عن المطالعة واقتناء الكتب وهي محاولات استطاعت أن تفرز نخبة من المثقفين وكان لها دور تنويري في المجتمع وما ينطبق على الماضي أيضًا ينطبق على الحاضر، إذ في ظل التقدم والتطور الحاصل الآن وفي ظل الرفاهية الزائدة لدى المواطن الخليجي بغض النظر عن الظروف المادية والإمكانيات الاقتصادية بين دولة خليجية وأخرى إلا أنه يمكننا القول إن التهميش الثقافي والفراغ الفكري والإبداعي بمختلف أنواعه مازال يتعمق بشكل أكبر وتتسع هوته عامًا بعد عام. كما أن الإنسان أصبح يتخذ مواقف سلبية تجاه

الثقافة ومرونة تجاه الأشياء الأخرى مثل الكماليات وشراء أحدث موديلات السيارات وغيرها هذه المواقف في الواقع هي كلها عوامل ذات طبيعة مزاجية ومظهرية وأن مجتمعات تجعل من المظهرية هدفًا وطريقًا لمستقبلها والرفاهية ضمانًا لراحتها إنما يعني ذلك أن الهوية الحقيقية والتراث الثقافي الذي يعتبر المكون الأساسي للشعوب قد انتهى وأخذت الحياة تأخذ مسارًا عكسيًا. من هنا إذن تبدو الرؤية واضحة حول الإشكالية التي تعيشها الثقافة اليوم في ظل متغيرات عاصفة كلها تنحصر في مجال الاختراعات العلمية والطفرة التكنولوجية ووسائل الاتصال الحديثة مما أحدث ارتباكًا في المجتمع خصوصًا المجتمع الخليجي والعربي وكان التباين واضحًا وملموسًا في جميع ميادين الحياة العلمية والنواحي السياسية والاقتصادية والتعليمية، كما ساعد هذا الغزو الثقافي على إيجاد شرخ في تركيبة المجتمعات العربية. من هذه العوامل على سبيل المثال: التناقض الاجتماعي، وطغيان المظهرية، وزيادة الإسراف في الأمور الشكلية، وتهميش الجانب الإبداعي واستبداله بالحاجات الكمالية، مما أحدث فجوة كبيرة لا يمكن ردمها بين ليلة وضحاها إلا أن طريق تصحيح المسار، وإعطاء الثقافة دورها التنويري من أجل المزيد من العطاء الإبداعي، يقول فيديريكومايور المدير العام لمنظمة اليونسكو سابقًا[2]: «الثقافة هي تلك المظلة من الرموز والجماليات والمغازي التي تنسج حياتنا

نسجًا ذا هدف وذا معنى من الميلاد حتى الموت. وهذه المظلة لا تنسج حياتنا الفردية وهويتنا الشخصية فحسب بل تمتد لتنسج بطرق تعمل على بعض الذكريات والمكتشفات وحتى الصدمات والمخاوف عبر حدود وجودنا الفاني إلى أجيال المستقبل». ولعل مثل هذا الكلام يعطينا دلالة واضحة على أهمية الثقافة في حياة الشعوب والمجتمعات لما لها من دور جمالي ومؤثر في تكوين الشخصية وأيضًا تخلق نوعًا من النشاط الإبداعي والتواصل الحضاري عبر مختلف المسارات.

الهوامش

(1) د. محمد الرميحي، **الثقافة والمثقف في الوطن العربي**، مجموعة كتاب، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 283.

(2) فيديريكو مايور، المدير العام لمنظمة اليونسكو.

القصة ودورها الاجتماعي والأدبي

تأتي القصة اليوم، ضمن أحد العناصر الفاعلة والمؤسسة، على صعيد تحقيق الإنجاز، في بنية الرصيد الاجتماعي والثقافي والأدبي وقد استطاعت القصة، بفضل ما تتضمنه من توجهات ورؤى مجتمعية أن تؤسس لها كيانًا أدبيًا مستقلًا، ويتمثل هذا الدور في تحريك الوعي الاجتماعي، لغة، وأسلوبًا ومحتوى، الأمر الذي يعتبر تحولًا، وإضافة جديدة في تاريخ الأدب العربي، خصوصًا وأن الشعر يعتبر النموذج المتميز والأكثر ديناميكية لدى قبائل العرب، منذ العصر الجاهلي وإلى يومنا هذا حيث تعتبر القصة اليوم، بمثابة النفس والميكنة على صعيد تحقيق الأهداف الإنسانية والاجتماعية. «حيث أثبتت بأنها الأقرب للفرد، وعليها يقبل القارىء دون أن يمنعه وضعه الاجتماعي، أو تمنعه قدراته الثقافية والعلمية» كما يقول لويس عوض، ومن هنا فإن الكتابة عنصر مهم في الأدب يعتبر من الإنجازات الإبداعية المهمة، نظرًا لكون القصة تتفاعل مع الحدث، ومع الظروف حسب اتجاهاتها ونوعيتها. وقد كان للبيئة الدور الفعال في تحريك ذهنية المبدع، نظرًا لما تؤسسه من إمكانيات وعوالم رحبة يقول لويس عوض: «الأدب والفن يعتبران ثمرة البيئة الاقتصادية،

والاجتماعية، اللتين تنبت فيهما» وقد كان لكاتب القصة سواء في عالمنا العربي أو العالم الخارجي دور رائد فيما يتعلق ببلورة المفهوم البيئي والاجتماعي على صعيد التأثير في المجتمع، من العوامل الرئيسية في أعمال كل: من نجيب محفوظ، ويوسف إدريس، وحيدر حيدر، وفؤاد التكرلي، ودسيتوفسكي، وماركيز، وهمنجواي وانطلاقًا من هذا المفهوم ونتيجة للدور المزدوج الذي لعبه هؤلاء الأدباء، استطاعوا أن يؤسسوا مكانة وحضورًا جماهيريًا، تجاوز الحدود الإقليمية لوطننا العربي إلى العالمية، لذلك فإن العمل الإبداعي أيًا كان نوعه سواء كان في القصة، أو الشعر أو الرواية يجب ألّا ينفصل عن المجتمع أو يبتعد عنه وإنما يبقى دائمًا حلقة اتصال، ليؤكد تواصله من ناحية والتزامه وارتباطه بالبيئة والمجتمع، أي يعايشه بخيره وشره على أن يكون هذا الارتباط بعيدًا عن الاستغراق في الرمزية فاستغراق الكاتب في الرمزية المجانية لا يعطي أية دلالة واقعية، كما أنه لا يعبر عن العوامل والجزئيات الحقيقية التي يعايشها المجتمع، فبقدر ما اقتربت القصة من المجتمع في أصغر جزئياته، اقتربت من الفرد ووجهته نحو الأفضل، خصوصًا إذا ابتعد الكاتب عن الغموض والاستغراق في العبارات اللفظية والتعبيرية، فالتركيز على الأسلوب السريالي والرمزي لا يعطي تلك الديناميكية في العمل الابداعي، كما أنه لا يؤسس لمستقبل ذي فائدة، على صعيد التغير الاجتماعي والثقافي بقدر ما يعطي صورة مشوهة ومغايرة للعادات والتقاليد التي يمارسها عامة الناس

في المجتمع، لذلك فإن الأعمال القصصية إذا ما أريد لها أن تؤدي دورها بشكل مؤثر على صعيد تحقيق الإنجاز الأهم والمؤثر في بلورة المفهوم الأدبي والعمل الإبداعي والاجتماعي، أن تتوسل التعبير والاتجاه الواقعيين في صوغ أيديولوجيتها، وإلا فإن رسالة القصة الحقيقية سوف تنتهي ويصبح لا معنى لها. وإذا ما ألقينا نظرة على تلك الأعمال الكبيرة التي قدمها كل من نجيب محفوظ، يوسف إدريس، ماركيز، في بعض أعمالهم، لاتضح لنا ذلك القدر الكبير الذي بذله هؤلاء الأدباء، في أعمالهم الرائعة نظرًا إلى التقنية والدقة في رسم الحالة الاجتماعية بالإضافة إلى اللغة المتطورة، سواء من خلال عرض سير القصة أو التعبير المتقن في وصف الحالة الاجتماعية، الأمر الذي جعل هذه الأعمال تنال تعاطفًا واستحسانًا من قبل النخبة المثقفة.

والقصة في الواقع محتاجة إلى كاتب جريء ومتمرس. والأديب الحقيقي هو الذي يعايش لحظة بلحظة آلام وأوجاع مجتمعة بكل مقوماته إنسانًا وبيئة، فمن هنا يأتي الاحتراف الحقيقي والعمل الإبداعي الخلاق على صعيد تحقيق الانجاز الحضاري للمجتمع، فكما أن الأدب محتاج إلى تطوير وتغيير في أطره ومفاهيمه، فإن المجتمع أيضًا في حاجة إلى آلية تحركه حتى يستطيع الصمود أمام المتغيرات والمؤثرات الثقافية، والاجتماعية. وهذا في الواقع لا يتأتى إلا عن طريق توظيف الأدب في خدمة المجتمع، والقصة باعتبارها من العناصر المؤثرة لها دور فيما يتعلق برسم التوجهات المستقبلية باعتبارها من العناصر الأدبية التي

تتفاعل مع الحدث، والتركيبة الاجتماعية في داخل البيئة والمجتمع الواحد، وقديمًا كان الإنسان العربي في العصر الجاهلي يجد في الشعر السلوى، والمكان الروحي للتعبير عن همومه وآلامه فوسيلة الإعلام عند الإنسان في تلك الحقبة هي الشعر، فالشعر يعتبر بمثابة السيف على صعيد غرس وارساء دعائم القبيلة. يقول أنور ثابت: «إن القصة في أدبنا العربي وخصوصًا الاجتماعية تمكنت من سبر غور المجتمع ومواكبته في مراحله المتعددة دون أن تغفل عن أية ظاهرة تتفاعل في جنبات هذا المجتمع ولم يقتصر الأمر على فئة دون الأخرى أو على منطقة ما من الوطن العربي فهذا الطيب صالح القاص السوداني في رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» كان يتابع مجتمعه مشددًا على القيم والعادات التي تشد أواصر المجتمع صامدًا في وجه التيارات العديدة التي تهب عليه». وقد استفاد كثير من كتاب القصة اليوم من التقنية ولغة السرد المتطورة لدى عمالقة كتاب القصة مما فتحت للكتاب أو جيل القصة الجديد أفقًا ورؤى وأحلامًا ألهمتهم تقديم الجديد والمفيد في عالم القصة وأيضًا بالنسبة إلى المجتمع والمتلقي. والقصة في سلطنة عمان لم تكن بعيدة عن تلك التحولات الأدبية والثقافية التي مرت على عالمنا العربي فيما يخص كتابة القصة، (فيؤرخ أول قصة كتبت كانت على يد الكاتب والشاعر الكبير عبد الله الطائي بعنوان (اختفاء امرأة) عام 1940م وغيرها من القصص. والشاعر محمود الخصيبي في عام 1960 بعنوان (تضحية طفل) والقاص سعود المظفر

كما جاء في بحث الكاتب إبراهيم بن حمود الصبحي كما يقول الدكتور علي المانعي[1] حيث يشير الصبحي بأن المظفر نشر عددًا من القصص عندما كان يدرس في الكويت منذ 1965م مثل قصتي (موعد في المحطة والمنتقم) في 1967م ويعزو ذلك كما أشار المانعي إلى النهضة التي بدأت في دول الخليج مع بداية سبعينيات القرن الماضي بسبب الصحافة وانتشارها الواسع ووصولها إلى كل بقاع المنطقة مما أوجد الوعي بأهمية القصة ودورها في نهضة الفكرالإنساني).

الهوامش

(1) د. علي المانعي، **كتاب القصة القصيرة المعاصرة في الخليج العربي**.

الرواية: دور ريادي وحالة استثنائية

رغم تنوع الأعمال الأدبية، من شعر، وقصة، ومسرح إلا أن العمل الروائي، أصبح له مكانته وأصبح له دوره المؤثر، إلى جانب الشعر وغيره من الأعمال الأدبية، ولكن ليس كل عمل روائي يمكن أن يقرأ، وليس كل عمل روائي يمكن أن يتقبله الجمهور، في ظل التقدم الثقافي والمفارقات الكبيرة التي تشهدها الحركة الثقافية، وحينما نتطرق إلى الحديث عن الرواية، لا نقصد التحليل، أو النقد، وإنما أردنا أن نتماشى مع الواقع الذي تعيشه الرواية اليوم لغة، وأسلوبًا، وتوجهًا، ومن خلال ذلك فإنه لا يمكننا أن نتناول الرواية بمعزل عن التاريخ، كما لا يمكن تناولها بعيدًا عن الجانب الجمالي فالإمساك بهذه الجوانب هو الضمان والأكثر شمولية للاقتراب من النص الروائي، وقد أضافت الثورة المعلوماتية، والتنوع الفكري، والأدبي، والثقافي رصيدًا معرفيًا آخر في مجال العمل الإبداعي، وذلك نظرًا إلى توافر التكنولوجيا من جهة كالانترنت وما يوفره من مواقع وغزارة في المعرفة والمعلومة وتعدد المصادر الثقافية، والفكرية، والأدبية والسياسية من ناحية ثانية، وأيضًا إلى وجود مراكز ثقافية، في الدول المهتمة بالثقافة. هذه الوسائل المتعددة الأغراض، لا يمكن بأي

حال من الأحوال، أن ننسى دورها نظرًا لما لها من تأثير في تقدم وازدهار الأدب والثقافة. حيث يعتبر وجودها رافدًا مهمًا في عملية وبلورة المفهوم الأدبي في وقتنا الراهن، وقد لاقت الرواية اهتمامًا كبيرًا من قبل القراء والمثقفين خصوصًا تلك الأعمال التي صدرت، عن أسماء مخضرمة ومعروفة، وذلك بفضل الأعمال الكبيرة والرائعة التي قدموها في مجال الرواية، ولذلك فإن تقبل الجمهور لهذا الصنف من الروائيين لم يأت اختيارًا عشوائيًا وإنما بفضل ما تتميز به أعمالهم من أفكار ومضامين ومن لغة متطورة ترقى بالمجتمع، وقد أعطت الرواية بهذه النهجية وبهذا الحوار المتعدد، توجهًا له خصوصيته ليس على صعيد الثقافة الفردية لكل شخص، وإنما للوصول بالثقافة والأدب إلى مكانة أكثر بروزًا وأغزر إبداعًا، وليس أدل على ذلك من الكم الهائل المتمثل في الاصدارات المتنوعة التي تقذف بها المطابع لأبرز الكتاب في عالمنا العربي والعالم الأجنبي. ولذلك فإن المنطق والواقعية يدعواننا إلى إلقاء نظرة واعية على الظروف التي تمر بها المجتمعات العربية والدور المطلوب تجاهها. ومن هذا المنطلق فإن عصر الرواية، بمفهومها وتوجهاتها الإنسانية يمكنها أن تلعب دورًا فعالًا في بلورة بعض العوائق المترسبة في مجتمع ما، وذلك من خلال أسلوب الرواية الذي دائمًا ما يعتمد على السرد واللغة غير المباشرة حيث تعتبر بيئة المجتمع بمثابة الفضاء الأرحب للمبدعين على مدى الحقب ومن خلال البيئة والإرهاصات الاجتماعية، تتكون لغة البداية، وتتكون

الفكرة حيث نلاحظ بأنه على صعيد التأثير البيئي والمخاض الاجتماعي، استطاع المبدعون أن يصنعوا لهم تاريخًا حافلًا، يتمثل ذلك في الأعمال العظيمة التي قاموا بها في مجال التأليف بمختلف أنواعه ومضمونه وتوجهاته، والرواية كعنصر أدبي لها دور كبير في هذا الإطار الاجتماعي، من خلال طرحها لقضايا المجتمع باعتبار أن المجتمع منظومة متكاملة، تتداخل فيها مختلف العناصر ويبقى على الروائي، أن يختار العنصر الذي يمكن أن يعطي المشروع الروائي طابعا مميزًا، على صعيد بلورة المفهوم التركيبي للتفاعل المجتمعي. والعمل الروائي، ومن خلال ذلك كله يتضح لنا إلى أي قدر يمكن للرواية أن تلعبه من خلال الأدوار التي تتفاعل مع الدور الذي تؤديه البيئة بدور كبير في تغيير البنية الأساسية سواء على المستوى الاجتماعي أو المستوى الأدبي، فالعمل الابداعي دائمًا وأبدًا يعتمد على الاستقلالية فيما يتعلق بحل الإرهاصات المجتمعية التي تترسب فيه الأمية، والأدب العربي بشكل خاص، والعالمي على وجه العموم، لم يستطع في الواقع أن يأخذ مسارًا ذا طابع استقلالي إلا عن طريق التجارب والمشاركة الفعلية من قبل الكاتب، والشاعر، والقاص والروائي في المجتمع، وذلك من خلال الاحتكاك المستمر مع الفئات بمختلف أنواعها وظروفها ومستوياتها، ثقافيًا، واجتماعيًا. ولذلك فإن قمة وبروز وشهرة كاتب ما لم يأت في الواقع إلا من خلال الأعمال التي يمكن أن تساعد أو ساعدت على تغيير وبلورة الأسس الاجتماعية ثقافيًا، واجتماعيًا

وسلوكيًا، فالعمل الابداعي بمختلف عناصره لا يأتي عن طريق الدعاية، وإنما من خلال التفاعل المستمر، الذي يقوم به الكاتب، يقول الأديب المعروف محمد براده: «إن انفتاح المجتمع العربي على الحضارة الحديثة وتطور الإنتاج الروائي لم يقلل من قراءة وانتشار القصص الملحمية التاريخية، قصص عنترة، تغريبة بن يهلال وحكايات ألف ليلة وليلة»[1]. لذلك لم تكن الرواية وهي تواصل زحفها لمزاحمة الأجناس الأدبية الأخرى كالقصة والشعر وغيرهما منعزلة خارج الإطار الأدبي والثقافي. وإنما ما زالت وهي اللون المعبر عن الحالة والإرهاصات الاجتماعية والسياسية تعطي عبر دفق شعوري أولًا نسيجًا معرفيًا وجماليًا لمختلف الأوجه التي رسمتها لنا المخيلة عن الرواية (وتعود بدايات هذا النمط الأدبي كما يقول روجرز إلى رومانسية القرون الوسطى، وتجدر الاشارة هنا إلى أن اسم الرواية في الالمانية (ROMAN) حيث تصور الفارس وهو يهجم على قوى الشر وبمرور الوقت والتحولات الاجتماعية يتغير مسرح الأحداث من مكانه الأصلي في القلعة والغابة إلى مكانه الجديد وهو المجتمع والمدينه). ولذلك فإن المسار الأدبي والثقافي الراهن الذي أصبح رهين الأزمات والتقلبات السياسية والذي أصبح يصرخ من داخل النفق الذي ليس باستطاعته أن يرفع صوتًا إلا من خلال انتهاج خط معرفي آخر أكثر جرأة يتمثل في الرواية التي أصبحت أكثر قربًا من المتلقي وأكثر امتلاكًا لشعوره وأحاسيسه الذي فتن بمعشوقته التي تخاطبه كل يوم برهافة غنجها ودلالها وسحرها الآسر. هكذا إذن تتبلور المصالح بين الرواية

والمتلقي وتتداخل العوامل النفسية والسيكولوجية بطيف الإبداع الجميل المتمثل في الرواية وخصوبة الثقافة. وعندما نربط المستقبل ونراهن عليه بالرواية وسحرها الآسر فإن ذلك يأتي نتيجة أحاسيس صادقة لغموض المستقبل والواقع الذي سيفرضه علينا نتيجة التحولات التي أصبح يعيشها العالم والتي استطاعت أن تخيم طويلًا وتظل جاثمة على روحنا التي ما فتئت تأمل الانفراج والانتعاش في مسار الحياة ومستقبل الإنسانية. من هنا إذن تتبلور لنا الصورة في أبهى تجلياتها التي تتمثل في القيم والمبادئ والأخلاق وغيرها، وكما يقول الكاتب المعروف محمد براده: «ورغم الحصار النسبي المفروض على الرواية الجديدة فإنها تظل مجال تحرر للمخيلة الفردية والجماعية، ترصد التاريخ الساخن وترسم من الداخل التاريخ المتميز للمواطن العربي الرافض للاحباطات والهزائم». وعندما تكون اللوحة قريبة من العين وليست بعيدة عن الحاجب تكون الرؤية أكثر وضوحًا في وضع اللبنات الأساسية لبلورة المشاريع الثقافية وتحويلها إلى مؤسسات ثقافية حقيقية منتجة تعمل لمصلحة المجتمع والكاتب والمثقف وكل فرد يعيش في هذا المجتمع على السواء، خصوصًا في ظل المتغيرات العالمية التي نشهدها والتي تبدو أكثر حراكًا من ذي قبل متعدية المقاييس والمعايير التي تتمدد وتتراجع من خلالها حضارة ما. وربما العصر الحالي الذي يشهد انطلاق العولمة التي تتركز في انسيابية الحركة وترويض الكثير من النظم والقوانين بمختلف أنواعها واتجاهاتها فكريًا وسياسيًا واقتصاديًا والتي ربما سيكون لها مردودها الإيجابي في

تحريك المجتمعات الراكدة والنائمة والخاملة إلى إقامة كل ما هو مستحيل ومستعصٍ من مشاريع ثقافية منتجة وبناء القدرات الذاتية والعقلية للإنسان، الذي أصبح يتزيا بملابس غير ملابسه وتكنولوجيا لا يفقه منها إلا تحريك الأزرار والألوان. وعندما تكون الأمة بهذه المفارقات العجيبة والغريبة فليس باستطاعتها النهوض أو مقاومة أي غزو جديد يهز كيانها إنما بذلك تعلن عدم قدرتها على مسايرة التحولات العالمية. وتخدم مسايرتها للصناعات والتكنولوجيا الحديثة ونتيجة لذلك ربما تكون الرواية هي اللون الأقرب إلى ترجمة كل التناقضات والمنعطفات الإنسانية والاجتماعية باعتبارها المسار الوحيد لبلورة كل ما من شأنه أن يساهم ويحلل مختلف القضايا والمشاكل الآتية. وكما يقول الشاعر إبراهيم نصر الله: «تبدو الرواية بأنها النوع الذي كان لا بد منه في هذه البقعة الممتدة بين مائين وأكثر من صحراء، كونها فنًا أدبيًا ديمقراطيًا فذًا في أشكاله الأرقى، فن الخروج عبر الذات إلى العالم الأوسع المتمثل في شرائح أخرى من البشر». وقد استطاع عدد من الكتاب والروائيين العرب مثل نجيب محفوظ، يوسف إدريس، صنع الله ابراهيم، عبدالرحمن منيف، الطاهر بنجلون، محمد شكري وغيرهم أن يشكلوا حضورًا ثقافيًا ليس على المستوى الإقليمي والعربي وإنما في مقارعة الرواية الأوروبية التي كان لها تأثيرها الواضح في بزوغ هذا الجانب الأدبي في مجتمعاتنا العربية. وقد كان لهؤلاء الأدباء دور مؤثر في إبراز الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي وتعريته وتقديمه للمتلقي العربي في قالب سردي،

وكما يقول الشاعر ابراهيم نصر الله أيضًا: «تعيد الرواية التاريخ إلى جوهره حين تستعيد اليوم المغيب، باعتباره في قرن غدا التاريخ هو الفن الرسمي، الذي يكتب الحكاية من وجهة نظر مطلقة القدره، لأنها مطلقة التحكم في كل ما يمس أدق تفاصيل الحياة، من لقمة العيش، حتى العيش نفسه وما كان يمكن لفن أدبي آخر أن يلعب هذا الدور بلا حدود، كما يمكن أن تلعبه الرواية، ذلك الفن المشرع على المعرفة بكل تجلياتها الإنسانية ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا، والقادر على الخروج بجرأة إلى كافة البشر والأنواع الابداعية، ليتمثلها، كما لا يتمثلها أي فن أدبي». («ومن المفارقات التي تدعو إلى الدهشة أن ألف ليلة وليلة» وهي أشهر عمل في الأدب العربي، قد أثرت ذلك التأثير الهائل على أوروبا لدى ترجمتها على يد جالاند (بين عامي 1703 و1713). بينما كانت تصنف، حتى وقت قريب في ميزان الأدب الشعبي ضمن نطاق ما وصفه أحد النقاد بأنه تلك المنطقة السفلية، المنتقدة من العربية المتوسطة أو العامية التي يطلق عليها اسم «اللاأدب» وعلى هذا الأساس ظل تأثيرها معطلًا في المراحل المبكرة من تطور الفن الروائي العربي المعاصر[(2)]. ومن هنا في الواقع مازلنا نراهن على الرواية كفن أدبي راق في تعاطيها مع المجتمع فهي لديها القدرة على مواجهة التحدي سواء كان على المستوى السياسي أو الثقافي فهي تستطيع أن تحرض وتستطيع أن تكون ايديولوجيا وقيادة الصراع وتأسيس النخبة. لأنها هي الأقرب وهي القادرة على نبش الواقع وتعريته. وكما يقول الكاتب عبده وزان: «الرواية عمل هندسة وبناء، وتملك

معايير ثابتة لا بد من امتلاكها، مثلها مثل المسرح أو السيناريو. فالنموذج الروائي وجد منذ أن وجد الفن الروائي تاريخيًا ثم راح يترسخ عبر العصور وأضحى الصنيع الروائي وقفًا على هذا النموذج إما أن ينسج منواله ويحاكيه أو يقلده، وإما أن يتمرد عليه ويتخطاه أو يحطمه»[3].

الهوامش

(1) محمد برّاده، **الرواية العربية: واقع وآفاق**، مجموعة كتاب، ص 178.

(2) روجز ألن، **الرواية العربية: مقدمة تاريخية ونقدية**.

(3) عبده وازن، جريدة **الحياة**، 3/ 8/ 2009م.

التنمية والثقافة

يعتبر تحديد المسار شيئًا مهمًا لفلسفة البناء الذاتي، خصوصًا عندما يصل المجتمع إلى مرحلة من اكتمال الوعي والتجربة والنضج، حيث يصبح الأمر ملحًا وملزمًا لتبني خطط جديدة تحقق الحلم وتحقق المستقبل وكل ما يتمناه المجتمع وذلك بعد انتهاء كل حقبة من التطور والبناء. وفي كل الحالات فإن الثقافة معنية في أي وقت وأي زمان، بتلاقي المسارات، وخصوصًا فيما يتعلق بالمسار التنموي الثقافي. فهذان العنصران أو المساران يجب أن يكونا في خط واحد، فلا تنمية حقيقية دون ثوابت تضع الخطوط العريضة التي تحقق للمشروع الثقافي غاياته، والذي يتجلى في تحقيق البنى الأساسية التي تقوم عليها الثقافة. وحتى لا ندخل مباشرة في هذا الموضوع المتشعب الذي يحتاج إلى تحليل متكامل ومصادر ودراسات مستفيضة تحقق النتائج المرجوة لتحقيق أي حلم تنموي ثقافي. فإننا نريد في البداية الدخول في حوار فلسفي حول الحاجة إلى رؤية بناء ثقافي متكامل وذلك من خلال توافر العوامل المهمة لتحقيق الاهداف الثقافية. ومن هنا يمكن لعنوان الموضوع التنمية والثقافة أن يفتح لنا الآفاق لتوضيح ذلك! إننا نعتقد أن لا التنمية ولا الثقافة يمكنها أن تقف موقف المتضاد وإنما كل

منهما يكمل الآخر. وكما يقول الشاعر السنغالي الشهير دافيد ديوب: «إن الثقافة هي الجهد الحيوي الذي مكن كل إنسان وكل شعب أن يستعين بخبراته وتطلعاته وتفكيره وعمله لبلوغ عالم مليء بالحياة والاندفاع والابتكار».

والتنمية وهي تفتح الآفاق الأرحب في فلسفة التطور والبناء في مختلف المجالات الحياتية سواء كانت بنية تحتية أو مشاريع اقتصادية واجتماعية وغيرها فإنها بذلك تفتح الدروب والمسارات لبناء مجتمع ثقافي واع وأكثر قدرة على الابتكار والعطاء والابداع وفي ظل عالم تحرّضه التكنولوجيا والاختراعات المذهلة والفضاءات المفتوحة وعالم الانترنت والهاتف المحمول وغيرها. فإن ذلك يحتم على كثير من الدول خصوصًا الدول النامية أن تكون حريصة أكثر من أي وقت مضى على ضرورة فتح الابواب لتبقى مشرعة إيذانًا بقيام نهضة ثقافية شاملة وعصر جديد من الإنتاج والتفاعل مع حركة المجتمع الذي أصبح يدخل مع انفتاح حقيقي ومنظم وذلك من خلال الفضائيات بمختلف توجهاتها وأهدافها، الأمر الذي يحتم وجود ثوابت أصيلة والذي يتمثل في تهيئة المناخ وفتح المجال لوجود المؤسسات الثقافية الفاعلة مثل الاتحادات والجمعيات الثقافية والمسارح والفنون وتفعيل دور وسائل الاعلام الرسمية والخاصة بمختلف تخصصاتها من خلال تقديم البرامج الهادفة والتركيز على البرامج الثقافية والموضوعات الجادة التي تستطيع أن تعطي المجتمع جرعة من التحصين في مواجهة البرامج الهابطة والفن الهابط والحرية الموجودة

في الدول سواء كان ذلك على مستوى الصحافة أو من خلال الاذاعة والتلفزيون، وتفعيل دور النشر والتأليف وحركة الترجمة والمكتبات بأنواعها من حكومية وقطاع خاص وتخصيص شوارع للمقاهي الثقافية ودور الثقافة، لأن ذلك سيمهد لانفتاح سياحي وثقافي وفتح المجال لانسيابية حركة الشعوب فيما بينها خصوصًا الجاليات العربية، لأنها هي الأكثر معرفة بالبيئة العربية والعادات والتقاليد بحكم الانتماء العربي. ولعل الظروف أصبحت مهيأة في ظل تداخل العولمة، وانسيابية الحركة بين الدول دون قيود أو حواجز كالتي كانت موجودة في السابق. فالانفتاح الفضائي الآن ووجود الحاسوب والانترنت ولا نعرف ماذا سيأتي من اختراع تكنلوجي في المستقبل ساهم وبكل قوة في التأثير والتأثر وساهم في خلخلة المجتمعات وغربلة الذات الإنسانية من الداخل ويمكن الاشارة إلى عينة من دراسة تقول (وتثبت الدراسات التي اجريت في الدول الصناعية أن الوسائل الثقافية الشعبية أكثر تأثيرًا. ونأخذ مثلًا حالة فرنسا عام 1975 إذ أثبت استقصاء أن 70% من العائلات الفرنسية تمتلك تلفازًا وإن 60% يشاهدون التلفاز كل يوم. وتعرف نتائج الاحصاءات التي اجريت في امريكا في هذا الشأن والتي دلت على أن الأمريكي الراشد المتوسط الحال يشاهد التلفاز بمعدل أربع ساعات يوميًا. وإذا ما أردنا متابعة التعداد يمكننا أن نشير إلى أن 90% من الأسر الفرنسية تمتلك مذياعًا وإن 72% يستمعون إليه كل يوم، وإن 38% من البيوت تمتلك آلة للاستماع إلى الاسطوانات

المسجلة، وفي مقابل ذلك لا تمتلك 31% من الأسر عمليًا أي كتاب وهناك 60% لا يقرأون أبدًا. ولا يشتري 50% من الراشدين أي كتاب، على أن 90% منهم يشتركون في المكتبات و72% لا يذهبون إلى السينما إلا نادرًا و93% لا يذهبون إلى المسرح و98% لا يترددون إلى قاعات الموسيقى و30% لا يذهبون أبدًا لمشاهدة تمثيليات و70% لم يزوروا قط الروائع و82% لم يدخلوا قط إلى متحف وتعكس هذه الارقام بالتأكيد سياقًا ثقافيًا معينًا. ص 85، 86 نفس المصدر. وعلى صعيد التمويل الثقافي اتخذت الحكومات في الدول الغربية اجراءات غير مباشرة للبحث عن الابداع القيم وذلك في قيامها باستثمارات عامة للمحافظة على التراث الثقافي ومنها التأهيل المعنوي وإنشاء مراكز ثقافية وتنظيم المتاحف وإنشاء مكاتب محفوظات ومكتبات وطرائق تمويل ثقافي لمساعدة المسارح والإنتاج السينمائي ولرعاية المهرجانات. ومساعدات غير مباشرة منها تخفيف الضرائب عن دخل المبدع والسماح للمؤسسات أن تدخر من دخلها أموالًا تسخرها في القطاع الثقافي[1]..

الهوامش

(1) المصدر كتاب **الثقافة: تجارب إقليمية**، الطبعة الأولى 1983م.

حال الثقافة وسقوط بغداد
ماذا تبقى من الحلم العربي؟

لعلها من المناسبة ونحن نودع عامًا، ونستقبل عامًا جديدًا أن نقف وقفة تأمل نحتسب من خلالها كم أمضينا من العمر على الصعيد الشخصي وكم قرونًا مضت من الزهو العربي. بين بغداد عاصمة الخلافة العباسية ودمشق عاصمة الخلافة الأموية. هاتان الحضارتان، اللتان كانتا مصدر اشعاع للنهضة العربية ومصدر قوة لبناء أسس الدولة العصرية. كيف لا وبغداد في عهد الرشيد عاشت أزهى أيامها، والذي تمثل في تشجيع الثقافة في مختلف الفنون والآداب، وكانت إحدى الحواضر المهمة في التاريخ العربي. بينما تقف على الطرف الآخر الدولة الأموية التي تمثل مركز الخلافة الإسلامية التي نشرت حتى الأندلس حضارة العرب الخالدة. لكن بعد الانهيار وتبخر الحلم العربي الذي كان في يوم من الأيام وإلى وقتنا الحاضر يمثل هاجس التنوير لكثير من الشعوب العربية جيلًا بعد جيل حيث لم يعد مجديًا الآن الغناء على الأطلال كما لم يعد الصمت مجديًا والعراق محتلة أراضيه كلها. والشعب العراقي الذي مازال عبر التاريخ وعبر تاريخ العراق القديم

والحديث يعيش صراعًا مع الغزو بدءًا من الغزو الفارسي في القرون الماضية مرورًا بالغزو الأوروبي بزعامة هولاكو الذي جعل من أطنان الكتب وسيلة لعبور جنوده أنهار العراق حتى تغير لون المياه إلى اللون الأحمر نتيجة امتزاجه بأحبار الكتب التي كانت تمتلئ بها مكتبات بغداد. وعندما نستعيد تلك الذاكرة الممتدة إلى قرون عديدة، وترسيخها في ذهنية جيلنا الحاضر الذي انفتحت عيناه على مشاهد المجازر والصور المريعة التي تناقلتها القنوات الفضائية والتي وجدت هي الأخرى وسيلة لترويج الدعاية الأمريكية والغربية وتمرير مشاريعها السياسية المعنية بالشرق الأوسط وهي أشبه بالدعاية (للمأكولات السريعة) هذه المشاهد في الواقع وهذا الاستخفاف الكبير بعقلية المواطن العربي من قبل القنوات الفضائية التي أصبحت هي الأخرى تنكمش على نفسها لفقدها الكثير من الشروط التي تمكنها من المواجهة لتقديم البرامج المفيدة أو إخفاقها في ذلك، هو الذي يقودنا اليوم ونحن نودع عامًا مضى ونستقبل عامًا جديدًا أن نتذكر ولو من بعيد ما يجري اليوم على أرض العراق وعاصمة الرشيد بغداد من تشويه وطمس متعمد لمعالم وتراث هذا البلد والمجازر التي تحصد الأرواح كل يوم من أبناء الشعب العراقي. ولنر ماذا فعلت الأمة بقيادة زعاماتها لتحرير العراق وتضميد جراحه من آثار العدوان؟ وعندما نتذكر العراق فإننا نتذكر أيضًا حال كتابنا ومثقفينا الذين يتخذون من الكتابات الإنشائية والمدائحية توجهًا ومبدءًا يمكن أن يقوم عليه ركام الأدب وأساس تتبناه

الثقافة. لا يمكن في الواقع والحال على ما هي عليه مجابهة وتحدي الواقع من خلال لغة هامشية وافتعالية، ولا يمكن الوصول إلى منبر ثقافي نهضوي وتنويري بطرائق دعائية وإنما يأتي كل ذلك من خلال تراكم المعرفة وتنشيط حركة التأليف والنشر، وتبني الكتابات المؤسسة والفاعلة والرصينة، الكتابة المشتعلة والمحرضة وبغير ذلك لا يمكن تحقيق أي مسار خصوصًا على صعيد تحقيق المكاسب الثقافية، الفاعلة التي تعنى بالابداع وبالثقافة وحركة التأليف والترجمة والنشر وتقترب من الكتاب بمختلف أطيافهم الابداعية، وإلى جانب ذلك لا بد من إعطاء المجال للتنوع الثقافي وتخصيص أهم المرافق الحيوية في كل دولة كالشوارع وغيرها من دور النشر والمطابع والمكتبات والمقاهي لأن وجود مثل هذه المؤسسات من شأنه أن يعطي الانطباع لكثير من الزائرين والسياح عن مدى التحضر والاهتمام من قبل الدول بالثقافة وبالفنون وبالكتاب بصفة خاصة. كما أن وجود مثل هذه المؤسسات يولد لدى المواطن الاحساس بالحيوية والانتعاش عندما يجد المكتبات تعج بحركة الكتب الحديثة. ومن هنا في الواقع تبدو الآمال والتطلع إلى الواقع، وإلى المستقبل بنظرة واعية للأمور والعمل على تحقيقها ليس بالشيء الصعب عندما يتوافر العمل الصادق في خدمة الشعوب والأوطان، وإن تحقيق الحلم أي حلم وتحقيق الحلم العربي لابد سيأتي ذات يوم، وعلينا دائمًا أن نتذكر جرح العراق الكبير وقبلها فلسطين وكما يقول الشاعر:

إذا احتربت يومًا وفاضت دماؤها
تذكرت القربى ففاضت دموعها

والاهتمام بالثقافة في الواقع، لا يمكن أن يأتي بطريقة عشوائية وإنما لا بد من تخطيط منظم وأخذ تجارب الدول المتقدمة التي استطاعت أن تخلق لها ذلك الإرث والتنوع المعرفي والتراكم الثقافي عبر الأجيال المتعاقبة، ولذلك يبدو السعي إلى خلق مناخ مغاير ومتميز للتنوع الثقافي، هو الحل الأفضل لخلط الأوراق للوصول بالثقافة إلى عصرها الذهبي كما كانت عليه في العصور السابقة، حين كانت الحواضر العربية والإسلامية تعيش عصرًا مزدهرًا في الفنون والآداب كافة. وكما قال الشاعر:

وسوى الروم خلف ظهرك رومٌ
فعلى أيّ جانبيك تميلُ؟

ثقافة النخبة وأوهام في المصلحة

تمثل ثقافة النخبة، أهمية ومرتكزًا رئيسيًا لأي مجتمع يسعى إلى التقدم وبناء مسار ثقافي ومعرفي يقوده الوعي والتنوير. والنخب في الواقع مهما تعددت وتنوعت في مختلف مجالاتها الفكرية والثقافية والسياسية تعتبر الركيزة الأساسية في المجتمعات لقيادة الحركة التنويرية، خصوصًا تلك التي تمثل المجال الثقافي. لكن تبقى الالتزامات والثوابت هي المحك الرئيسي بين المثقفين كتابًا وشعراء وأدباء فعليهم يقوم البناء المعرفي المتجدد وتنهض الثقافة لتتوجه إلى مختلف شرائح المجتمع. لكن في زماننا وعصرنا هذا لم تعد الثوابت والمبادئ قائمة كما كانت في السابق كالتي يمثلها روسو وكولن ويلسون وألبير كامو وهمنجواي وبودلير ولوركا وغرامشي وتولستوي ودسيتوفسكي، وفي عالمنا العربي الشاعر محمود درويش ونزار قباني وغيرهما كثير. فهؤلاء لم يكن طموحهم أن يتقلدوا أعلى المناصب أو أي مغريات مادية وإنما كان همهم أن يبقوا مخلصين للهدف الأسمى وهو الإخلاص للابداع وللكتابة الجميلة ولخدمة الناس أو الشعوب المضطهدة والشعوب التي تخدم الابداع. ولذلك بقي هؤلاء الكتاب العظماء خالدين في ذاكرة التاريخ وذاكرة الشعوب

وبقيت أعمالهم تتداول في كل أنحاء العالم. لكن عندما نأتي ونقارن ذلك العصر بعصرنا الحالي، نجد أن هناك فرقًا شاسعًا بين كتاب وأدباء ذلك العصر وكتاب وأدباء اليوم أو هذا العصر فيما يتعلق بالثوابت والمبادئ، التي أصبح معها الابداع لم يتحدد على مسار واحد ولم يجد له مرسى يعبر عن هوية معينة وإنما أصبح تعصف به التيارات والأهواء. وعندما تصل الحال في الواقع إلى هذا المستوى من الانحطاط فإن ذلك لا يعبر عن الآمال والمستقبل الواعد الذي تطمح إليه الشعوب في أن ترى في مجتمعاتها وبلدانها صورًا ونماذج لكتاب رائعين ومخلصين لإبداعهم ومخلصين لمشروعهم الابداعي والثقافي. وهناك في الواقع نماذج نشاهدها ونقرأها في الصحافة حول قيام بعض من يلقبون بالأستاذية والأديب بممارسة وانتهاج أسلوب وقاموس يرتكز على المديح من خلال تكريس أسماء بعض الكتاب ووصفهم بأنهم أصحاب الانجازات التاريخية في محاولة منهم لتجاهل أسماء وتكريس أسماء وهي كتابات أشبه ما يعرف (بالرسائل) الإخوانية والرومانسية لا غير وقد مضت مثل هذه الكتابات في قاموس بعض الكتاب والأدباء وكأن التاريخ هو مجرد شيء هامشي في الثقافة من شأن هذه النماذج من الكتابات أن تؤسس منهجية وثوابت يمكن أن ترتكز عليها الثقافة في غياب الثوابت الحقيقية والواقعية التي تكشفها الانجازات في حقل المعرفة وحركة الابداع أن كان في مجال النقد الأدبي والشعر والرواية والقصة والتأليف والترجمة وغيرها على غرار جماعة (الديوان)

(وأبوللو) والمهجر أمثال ميخائيل نعيمة، وجبران خليل جبران وطه حسين،والعقاد وغيرهم الذين كانت لهم انجازاتهم الابداعية والتاريخية في حركة الابداع العربي. لكن كأن يشار إلى تكريس أسماء معينة ووصفهم بالرواد (كتابًا وأدباء) تحت مظلة الانجازات التاريخية في مجال الابداع وتجاهل أسماء كان لها دور ولو هامشي كالأسماء التي يتم ذكرها في الثمانينيات في مجال الاشتغال بالكتابة فهذا شيء بعيد عن الحقيقة ومنافٍ للأعراف الثقافية، إلا إذا كان ذلك يأتي في اطار الكتابة الاستهلاكية كالتي نقرأها بين حين وآخر رغم السرية المتوخاة لبعض كتاب الموائد الرسمية التي تقام في كل عام ولا نعرف عنها كيف تقام وتنتهي إلا عندما تنشب بعض الخلافات بين الكتاب الحاضرين لمن لهم الأحقية في الاقتراب من المائدة الكبيرة. إن الثقافة في الواقع والحركة الابداعية على وجه الخصوص لا يمكن تصنيفها أو تتأسس من خلال المصلحة الذاتية، وكما يقول أبو حيان التوحيدي: «إن الكلام على الكلام صعب»، ولذلك عندما نتحدث عن اسماء ومراحل تاريخية يجب أن تسبقها الانجازات في مجال الابداع والثقافة، وأن تكون هناك في المقابل مؤسسات ثقافية فاعلة ترفد المجال الثقافي والساحة الثقافية كدور النشر والمكتبات الأهلية التي ترفد الشارع الثقافي بالاصدارات والكتب الحديثة، أي يمكن القول بشكل عام هناك مناخ ثقافي وحياة ثقافية نتنشقها كما نتنشق الهواء. لكن هذه هي حال الثقافة والمثقفين. تكون منطلقاتهم في حدود

إمكانياتهم وليس من أجل إعطاء الثقافة وحركة الابداع والاهتمام كقيمة وطنية تتأسس عليها وعلى أركانها الأجيال المتعاقبة. ولو نظرنا إلى الدول نجد هناك الكثير من المظاهر الثقافية والسياحية والاعلامية. ففي المجال الثقافي نجد هناك المجمعات الثقافية التي تتعدد فيها الانشطة الثقافية وتتنوع وتنضوي كلها تحت سقف واحد العروض السينمائية والمقاهي والندوات والمكتبة والتأليف والترجمة وطبع الكتب وغيرها وفي المقابل توجد هناك السياحة الثقافية كالمجمعات الفخمة والمقاهي حيث تخصص بعض الدول شوارع للمكتبات ودور النشر والصحافة. إذن عندما نريد للحركة الثقافية أن تزدهر وتنتعش ويتفاعل معها الجمهور يجب أن تكون جميع العوامل متوافرة وحاضرة في المجتمع بكل قوتها وقريبة من الناس تساعدهم على مواجهة الفراغ ومشاغل الحياة الكبيرة. إن نظرة إلى تلك المناخات الحيوية الثقافية تعيد إلى الكاتب المبدع الروح فيزداد حيوية وتألقًا لتقديم الابداع الجميل وليس الابداع المغلف بالمديح والانشاء، وكما يقول الدكتور سعيد يقطين: «لأننا حين لا نتحول ولا نتطور ونحس بذلك أجمل الإحساس نظل نشعر أبدًا بالحاجة إلى مزيد من الكلام على الكلام وما يزال هذا ديدننا وهذا في أحسن الأحوال هو ما يدفع إلى السجال وليس إلى الحوار لأن من ضرورات الحوار أن يكون هناك موضوع». من هنا ورغم كل ذلك ما زلنا نعتقد أن المناخ الثقافي والابداعي سيكون في تطور مستمر في السنوات القادمة في ظل حركة الإصلاحات الواسعة وبناء

المؤسسات الثقافية التي من شأنها أن ترفد الحركة الابداعية في المستقبل القريب والبعيد. وكما يقول الدكتور علي حرب: «أعني بالوهم سعي المثقف إلى تنصيب نفسه وصيًّا على الحرية والثورة أو رسولًا للحقيقة والهداية أو قائدًا للمجتمع والأمة والمثقفون حيث سعوا إلى تغيير الواقع من خلال مقولاتهم فوجئوا دومًا بما لا يتوقع: لقد طالبوا بالوحدة فإذا بالواقع ينتج مزيدًا من الفرقة وناضلوا من أجل الحرية فإذا بالحريات تتراجع. وآمنوا بالعلمنة فإذا بالحركات الأصولية تكتسح ساحة الفكر والعمل»[1].

الهوامش

(1) علي حرب، **أوهام النخبة أو نقد المثقف**، ص80.

المجلات الثقافية
والكتاب المجاني

في ظل التحولات الكبيرة التي يشهدها هذا العصر والاختراعات البشرية الهائلة التي تفاجئنا كل يوم بالجديد وفي مختلف المجالات وخصوصًا في عالم الألكترونيات والتقنيات الحديثة، في ظل كل ذلك كان لابد وأن تمضي الصحافة على قدم المساواة في التطور وبلوغ أرقى المستويات في المضمون والتصميم وفي أشكالها وحجومها وألوانها، حتى تستطيع أن تنافس ويكون لها مكان في الأسواق العالمية. وبغير ذلك أو الابتعاد عن روح المغامرة والتطور، فإن مكانها سيكون على الهامش ولن تبتعد عن السوق المحلية. ولذلك يلاحظ اليوم أن الكثير من المؤسسات الصحفية والثقافية سواء كانت على مستوى دول الخليج أو الدول العربية وأوروبا وأمريكا تحاول أن تركز وتقوي استثماراتها في التعليم والثقافة لتنطلق بعد ذلك إلى الاستثمار في الصحافة، وذلك عن طريق ضخ رؤوس الأموال من أجل خلق مجموعة من الأنماط الجديدة التي من ضمنها التميز وتقديم المفيد والجديد للقارئ. وهذا ما نلاحظه اليوم بالفعل، حيث تقوم بعض المجلات بعمل

رائد يتمثل بإصدار كتاب مع كل عدد تصدره المجلة ويمكن اعتبار «مجلة نزوى» العمانية سباقة في هذا العمل الرائد. وبالأمس القريب أصدرت مجلة «دبي الثقافية» التي تصدر في دبي بدولة الامارات إعلانًا حول رغبتها في إصدار كتاب يوزع مجانًا مع كل عدد تصدره. إن مثل هذه المبادرات في الواقع التي تطلقها المؤسسات الصحفية إنما تعبر عن روح المسؤولية والأهمية التي تكتسيها الثقافة في تنوير القارئ والمجتمع، وأيضًا رغبة هذه المؤسسات في أن تكون لها هويتها كصحافة أنشئت من أجل أن تبقى وأن تقوم بدور بناء في خدمة المثقف ونشر الوعي وبناء مسار مؤثر يأخذ ويعطي ويساهم في تطور الحياة الثقافية والعمل الصحفي الجاد والرصين. وعندما يأتي الحديث اليوم عن أهمية الدور الذي تلعبه الصحافة بمختلف أنواعها، إنما يأتي حول أهمية أن تبدي الصحافة في بلدنا عمان ودول الخليج الروح المتدفقة بالعطاء تجاه المجتمع والمتلقي الشغوف والمتعطش لأن يرى صحافة بلده وقد وصلت إلى الأسواق العالمية وتقديم الكتابات الجادة والرصينة والتميز في شكلها ومضمونها وأن يبدي القائمون والمشرفون على هذه الصحافة روح وحب المغامرة للتطوير المستمر لأنه بدون المغامرة لن تتحقق المعجزات.

وعندما يأتي الحديث اليوم عن أهمية الارتقاء بالصحافة وتقديم الخدمات التي تساهم في تطوير الثقافة، لا ننسى تلك المجلات الرائدة التي كان لها دور منذ عقود طويلة، كمجلة الآداب اللبنانية، ومجلة شعر، ومجلة

مواقف، ومجلة فصول المصرية،ومجلة الناقد لرياض الريس ومجلة المدى، ومجلة العربي الكويتية، ومجموعة الكتيبات والسلسلات العالمية التي تصدرها دولة الكويت، إلى جانب مجلة الدوحة القطرية والفيصل السعودية، ومجلة كتابات معاصرة اللبنانية وغيرها التي قدمت خدمة كبيرة في تطوير الأدب والثقافة والشعر العربي، وبفضلها خرج كتاب كبار نراهم اليوم مؤلفين ومساهمين في الكتابة والدراسات والنقد تزدهي بهم الثقافة العربية، وعندما يصل دور هذه المجلات إلى حد التنوير وتطوير الثقافة والأدب العربي وتشجيع الكتاب والمثقفين على الابداع وتأهيلهم ثقافيًا وفكريًا، إنما هي تقدم خدمة تصب في مصلحة الدول والمؤسسات الثقافية وتساهم في تحقيق الحلم العربي الرائد الذي لابد وأن يظل ملهمًا على الدوام في صنع الأمجاد العربية، في ماضيها المضيء وحاضرها الذي لابد وأن يكون أكثر إشراقًا بفضل ما تمتلكه الأمة العربية من الخليج إلى المحيط من مقومات وإرث ثقافي وحضاري كان له دور في بناء النهضة والتقدم والتطور وصنع الأمجاد التي ستكون شاهدًا تتناقله الأجيال جيلًا بعد جيل. ولعل الصحافة وخصوصًا المجلات والدوريات الثقافية وهي تقوم بهذا الجهد في رفد وتشجيع الثقافة والمثقفين والكتاب والشعراء من خلال تقديم الدعم وتبني إصدارات الكتاب وتقديم الجوائز والحوافز المالية، لعلها بذلك تساهم في تعزيز مكانة الثقافة العربية إلى أفضل مكانة مما هي عليه اليوم وغدًا.

في رحيل محمود درويش الشاعر الجميل والمتجدد

رحيل الشاعر محمود درويش، يعتبر من اللحظات الفارقة الكبيرة في رهان الشعر العربي على توجهه القومي وإشراقته كشعر ارتبط على مدى عقود وسنوات طويلة، بوجدان المواطن العربي. وكان محمود درويش هو الفارس الذي ظل يشعل المنابر بعد الشاعر نزار قباني. وكان له حضوره وتفاعله حتى الاحتراق في تطوير الشعر وبناء القصيدة بإيقاعها وموسيقاها وسلاسة شعره. ويعتبر محمود درويش أحد المجددين الكبار في تطوير الشعر. كيف لا وهو الذي تغذى من معين لا ينضب معين الشعراء الأسطوريين الكبار المتنبي وامرىء القيس وأبي تمام والشاعر العالمي شكسبير ولوركا ورامبو وغيرهم. والشاعر المبدع والمؤثر في وطنه يتعمق أثره الشعري خصوصًا إذا كان هذا الشاعر بحجم محمود درويش، الذي ناضل من أجل قضيته فلسطين فكانت حبه الأول وقصيدته الأولى على مدى كل هذه السنوات من عمر اغتصاب فلسطين. وعندما يترجل فارس المقاومة في هذه اللحظة العصيبة بالذات، ندخل ويدخل معه الشعر العربي، من جديد أمام مفترق

طرق، في غياب الشعراء الكبار، وغياب شعراء المنابر المتألقة والثائرة الذين طالما ألهبوا الروح وحماسة الجماهير من محبي ومتذوقي هذا اللون من الشعر النضالي والمتدفق بالغنائية في إيقاعه وموسيقاه وبساطه لغته. الشعر الملحمي الجميل، شعر العشق والحنين إلى الأرض والوطن الأول والأخير فلسطين.

الغريبُ النهرُ قالتْ

واستعدّتْ للبكاءْ

لم نحاول لغةَ الحبِّ

ولم نذهبْ إلى النهرِ سدىً

وأتاني الليلُ من منديلها

لم يأت ليلٌ مثل هذا الليلِ من قبلُ

فقدّمتُ دمي للأنبياءْ

ليموتوا بدلًا منا

ونبقى فوق رصيفِ الغرباءْ

ومن يتابع التجربة الشعرية لمحمود درويش، يلاحظ قدرته الفذة وذكاءه اللماح في الابتكار والتجديد في الشعر العربي والدليل على ذلك غزارته المنقطعة النظير في الاصدارات المتتابعة دون انقطاع. فهو لم يبق أسيرًا للشعر الكلاسيكي ولا أسيرًا لرتابة وسوداوية القصيدة ذات المفردات الظلامية وإنما عمل على توظيف التراث

والأسطورة واستلهامه عن بعد عبر مراحل مشروعه الشعري وتطوير الشعر العربي. ولعل محمود درويش الذي أتعبته قضية وطنه فلسطين، وأتعبته المنافي بين عدة مدن، القاهرة ـ موسكو ـ باريس ـ عمّان ـ صنعاء ـ بيروت ـ دمشق وغيرها من المدن، لم يظل مستسلمًا للنزوات والأهواء وتجاذب الأحزاب ودهاليز السياسة والفراغ القاتل والموحش، وإنما عمل على صنع مجده الشعري المميز بالتطوير والتجديد والقراءة (التي كان عبر عنها بأنه كان يقرأ مثل (النملة) وأنه كان قبل أن يكتب قصيدته يقرأ مائة كتاب. وقد استفاد من عمله في الصحافة وفي مؤسسات النشر والدراسات التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية في لبنان وكان قبل ذلك ومنذ سنواته الأولى بعد إنهائه الشهادة الثانوية العامة بدأ حياته بكتابة الشعر والمقالات في صحافة الحزب الشيوعي الإسرائيلي مثل الاتحاد، والجديد التي أصبح فيها بعد مشرفًا على تحريرها ثم تقلد بعد ذلك عددًا من المناصب الثقافية). وقد ظل الشاعر محمود درويش وفيًا لقضيته ووطنه لم تفارقه لحظة واحدة وإن اختلفت قصائده بألوان من العبارات والعناوين والمفردات ونتيجة للإيقاع الجميل والغنائية المتدفقة بعذوبة الموسيقى والإلقاء الجميل كان له محبوه وكان له عاشقوه في كل منبر يعتليه إضافة إلى مدى الرواج الكبير الذي تحظى به إصداراته والمتابعة الجماهيرية الكبيرة لكل كتاب يصدره. وعندما يكون الشاعر متقبلًا من قبل الجمهور فإن الجمهور منذ ولادته الأولى كشعر حي ومتدفق ببناء لغوي عذب سلس لا

يقبل الظلامية والابتذال. وكما يقول عبده وازن: «كان الشعر هو النهاية التي ارتجاها شاعر «جدارية» السياسة أنهكته والقضية أثقلت ظهره وبات يشعر بحاجة ملحة إلى حريته الحرية التي تجعله فردًا في جماعة بعدما كان جماعة في فرد».

وداعًا للذي سنراه

للفجر الذي سيشقنا عما قليل

لمدينة ستعيدنا لمدينة

لتطول رحلتنا وحكمتنا

وداعًا للسيوف وللنخيل

لحمامة ستطير من قلبين

محروقين بالماضي

إلى سقف من القرميد

وهكذا في الواقع، يظل الشاعر يثير الأسئلة تلو الأسئلة بكلمات شعرية جميلة وغناء لا ينقطع، في سبيل البحث عن مكان له ولتكون يوتوبيا الشاعر المحاطة بالسرية والكتمان الذي ربما من شأنه أن يعيد تلك الأمجاد التي عجز عنها، وعن تحقيقها شعراء كبار.

الثقافة ودورها
في صنع الإعلام الجماهيري

ربما هناك سؤال أزلي، وهو هل الثقافة تصنع الاعلام أم الاعلام هو الذي يصنع الثقافة؟ هذا السؤال الأزلي في الواقع ربما من شأنه أن يفتح الشهية ويضمّد الجرح العميق الذي أصبحنا نعايشه كل يوم. فالثقافة في الواقع بما لها من دور تنويري ومن تأثير كبير في المجتمع وفي عقول وأذهان الناس، لا يمكن لها أن تبقى في الحضيض ولا يمكن أن تكون شيئًا هامشيًا، كما أن الاعلام بمنابره وتقنياته وأستوديوهاته وقدرته على الوصول إلى جميع بقاع العالم وعقول الملايين من البشر بمختلف أعمارهم لا يمكن في الواقع أن يتعامل أي شخص كان معه ومع الميكروفون ويدير البرامج الثقافية والندوات والحوارات الثقافية إلا إذا كان متمكنًا ومتضلعًا ومثقفًا مخضرمًا. وهذا ما نلاحظه اليوم في الواقع لدى كل مقدم برامج ثقافية. فأن تغيب كل مواصفات الاختيار وأن تضيع القيم ويتلاعب بذوق الإنسان الرفيع وأهم مكون له وهو الثقافة بشكلها وتكوينها وجذورها منذ العصور الابداعية الأولى أناس أدعياء ثقافة واعلام، فمنذ بداية الثمانينيات

حينما كنا نسمع الإذاعات ونشاهد التلفزيونات العربية قبل أن تبث القنوات العربية، كنا نركز في مشاهدتنا ومتابعتنا للإذاعات والتلفزيونات العربية التي تقدم وتتميز بالبرامج الثقافية نذكر منها البرنامج الثقافي الذي كان يقدمه المذيع الكبير واللامع في ذلك الوقت رياض نعسان آغا في التلفزيون السوري الذي أصبح فيما بعد وزيرًا للثقافة في سوريا وبعض البرامج الثقافية في إذاعات وتلفزيونات دول مجلس التعاون إلى جانب البرامج الثقافية التي تقدمها هيئة الإذاعة البريطانية. فكان الذين يديرون ويقدمون هذه البرامج هم أناس على قدر عال من الثقافة وحسن الأداء وما يتمتعون به من طبقات الصوت وإلمامهم باللغة العربية. ولذلك كان لهم تأثيرهم الجماهيري في المجتمع، واسمهم اللامع، ولهم تقديرهم في الوسط الثقافي. لكن عندما نتحدث اليوم عن دور الثقافة والاعلام نجد أنه رغم التطور الكبير الذي حدث للاعلام من تكنولوجيا وتقنيات حديثة ومن بث على الفضاء ومشاهدة الوجوه الجميلة للمذيعات نجد أنفسنا أمام بحر عائم من الديكورات والأكسسوارات الجذابة في مقابل برامج هابطة تقدمها مذيعات صابغات الوجوه وعظامهن منهكة من الدلع وكأننا في معرض (للفنون التشكيلية) إضافة إلى موضات إذاعات الـ(أف.أم) التي تنتشر كل يوم والتي لا تحترم ثقافة وأذواق الناس فالمهم أنها بالكلام المصري (كلنا بنهيّص) ونبيع الكلام بمختلف اللهجات لأن الذين يديرون مثل هذه البرامج ليسوا شعراء أو على قدر عال من الثقافة وإنما هم جاءوا من عالم

(البزنس) ومن أسواق المال ورجال الأعمال. وليس هناك فرق في الواقع بين الاعلام العربي وإعلامنا في دول مجلس التعاون الخليجي فاعلامنا في الخليج يمضي على سياسته الثقافية على الهامش من خلال استقطاب وتكريس مقدمي ومعدي برامج سواء في الاذاعة أو التلفزيون لا يمتلكون لغة وصوت المذيع المحترف الذي يتفاعل مع النص الأدبي بل نجد البرامج تتركز في قراءة عابرة لكاتب عالمي أو أديب عربي أو قراءة نص كتبه بنفسه ونشرته الصحف أو يقرأ موضوعًا لصديق له وتتكون بعدها (شلة الأنس) حيث لا توجد هناك إستراتيجية للبرامج الثقافية على مدار العام (البرامج الحوارية - الندوات) يستضاف من خلالها مبدعون مخضرمون لهم تجاربهم في مجال الابداع والفكر أي بمعنى وكما يقول الدكتور صباح ياسمين: «إفراغ مفهوم الثقافة من كونها نتاجًا إنسانيًا إبداعيًا، إلى ناتج مبسط مفرغ من محتواه المعزز المدعم بالقيم وبالتالي إشغال المثقف بوظيفة الثقافة وليس بمضمونها وأهدافها»، ويقول أيضًا: «قد يضطر المثقف كي يضع بضاعته في سفينة الاعلام ويبحر بها نحو عوالم أوسع إلى أن يجامل الاعلام، ويتوافق مع شروط رفقته وبالتالي قد تنتقل عدوى الفساد المتوافرة في رسالة الاعلام إلى رسالة الثقافة ويتحول المنتوج الثقافي إلى مايشبه الاعلان التجاري في مضمونه وغايته، وقد نرى أحيانًا أجمل القصائد وأعذب الأغاني تلوى وتهان كي تحول وتصاغ من أجل ترويج مبتذل لمسحوق تنظيف منزلي أو قد يتنازل المثقف عن مواقفه

المبدئية لصالح استثمار مساحة من النشر، أو الظهور على شاشة التلفاز. وبدل أن تكون أجهزة الاعلام وعلاقتها اليومية المستندة إلى الصدقية والخدمة الموضوعية أداة توحيد للمجتمع وتعزيز لثقافته، تتحول إلى عامل تشويش وإفساد لذائقة الاحساس بالحدث والتعبير عن الموقف الموضوعي منه. وهنا لابد من الاشارة إلى أن المجتمعات التي تتسم بانخفاض مستوى التعليم، وبالتالي تدين مستوى التعامل مع المنتوج الثقافي، تقع في الغالب تحت سيطرة مصدر إعلامي واحد أو أكثر ربما. ويمارس ذلك المصدر دور الاكتساح لصالح تسويق وإحلال قيمة ثقافية»[1]. ومن هنا في الواقع نرى أنه إذا أردنا للاعلام أن يكون له صدقيته وللثقافة تأثيرها بالنسبة إلى الفرد والمجتمع أن يتم الاهتمام بنوعية البرامج الهادفة والبحث عن مقدمي ومعدي برامج ثقافية على قدر عال من الثقافة ونعتقد بأنهم موجودون من الخليج إلى المحيط. فهذا العصر هو عصر التحولات الثقافية الفاعلة والمؤسسة وليس الثقافة والبرامج الهامشية والهابطة.

الهوامش

(1) د. صباح ياسين، **الاعلام: النسق القيمي وهيمنة القوة.**

السياب وتجربته الشعرية الرائدة

ربما سنتذكر السياب ابتداءً من قصيدته (أنشودة المطر) وغيرها من القصائد ذات الايقاع الجميل. يقول عنه الناقد ناجي علوش في مقدمة ديوان السياب: «وقد أعاد السياب للقصيدة العربية ارتباطها بقضية الجماهير عن طريق كثير من تفاصيل الحياة اليومية التي تتحول إلى رموز ذات أبعاد ودلالات».

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر

أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر

عيناك حين تبسمان تورق الكروم

وترقص الأضواء كالأقمار في النهر

يرجه المجداف وهنًا ساعة السحر

كأنما تنبض في غوريهما النجوم

من خلال هذه المقاطع الشعرية سوف يشعر كل متذوق لشعر السياب، أن السياب لم يكن مجرد موهبة شعرية فحسب ولم يكن مجرد قارىء لشعراء مثل بودلير وغيره من الشعراء أو متوسد للكتب والدواوين الشعرية، وإنما هو شاعر فنان وشاعر واسع الخيال حيث استطاع

بخياله أن يمزج الجمال حسب تنوع طقوس الحياة التي يعيشها في بلد يملك جميع المقومات التاريخية والحضارية والتجربة السياسية، فهو لم يكتب الشعر من أجل الشعر أو لترديد بعض الكلمات العاطفية وغيرها أو رسم بعض اللوحات السوريالية الكبيرة وإنما يكتب الشعر الذي يقترب من الناس، ويكتب الشعر الذي يعالج الروح العاشقة والمتدفقة أبدًا بالعطاء، والروح الذواقة التي تحب الشعر الهادف وتعشقه عشقًا يمتزج بالوعي الجميل. ومن خلال هذه التجربة الحية والمتعمقة يأتي الحديث عن الشاعر السياب متفجرًا كنهر الفرات وجداول بويب وجيكور، والذي من خلالهما يمكننا رسم ملامح عبقرية السياب وثقافته التي مازالت تثير الأسئلة وتثير الشجون التي لا يمكنها أن تنتهي مهما تنوعت الثقافة والمدارس الأدبية والشعرية. وعندما يثير السياب والشعراء كل هذا الجدل وكل هذا الاهتمام المليء بالحياة الصاخبة، إنما يعني ذلك أنهم ليسوا شعراء بالفطرة وليسوا شعراء عاديين. كما أن شعرهم ليس شعرًا هامشيًا وإنما هو شعر ذو تجربة متأصلة وتجربة تعبر عن مدى الجهد الحقيقي والاحتراق المتواصل الذي انطبع عليهم، هكذا نتيجة إصرارهم ومثابرتهم على تحقيق الهدف الأسمى والهدف الذي كان له أفضل الأثر في بلورة الكثير من القيم الإنسانية، والمعاني الوطنية التي لا يمكن إنكارها ولا تغيرها الأيام، هكذا بمجرد إسالة الدموع على أطلال شعره الخالد. ونحن عندما تداهمنا وتساورنا كل هذه الأحاسيس والشجون التي تتمثل في الكتابة عن الشعراء الكبار مثل بدر شاكر السياب وغيره، إنما هو دليل على حبنا وعشقنا لأعمالهم الخالدة ودليل

أيضًا على تقديرنا للدور الكبير الذي قاموا به من أجل تطوير لغة الشعر العربي والأدب والثقافة العربية. فالعمل الإبداعي الجميل والمؤسسي هو الذي يبقى وما عدا ذلك تركله الأقدام ويرمى في أماكن القمامة، يقول السياب في رائعته أنشودة المطر:

مطر

مطر

مطر

أتعلمين أي حزن يبعث المطر؟

وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع؟

كالحب، كالأطفال، كالموت ـ هو المطر!

ويقول أيضًا:

ومنذ أن كنا صغارًا كانت السماء

تغيم في الشتاء

ويهطل المطر

وكل عام ـ حيث يعشب ـ الثرى ـ نجوع

ما مر عام ـ والعراق ليس فيه جوع

مطر

مطر

مطر

يقول عنه ناجي علوش أيضًا في مقدمة ديوان السياب: «نهل بدر من ثقافات مختلفة، فقرأ الأدب العربي والأدب الروسي وأدب اللغة الانجليزية، ولقد توفر على دراسة الأول والأخير منهما، وتمثل آراء أكبر الشعراء العرب والإنكليز والأمريكيين. ولقد درس القرآن الكريم كما درس الإنجيل والتوراة، وقرأ شيئًا من التراث الفكري، كما قرأ بعض التراث الفكري العربي، وكان كل هذا يبدو في شعره بأشكال مختلفة، وبمقادير متفاوتة». ويضيف ناجي علوش: «لهذا كله جمع شعر بدر بعض ما في الشعر الحديث وبعض ما في الشعر التقليدي، وظهرت فيه الروح الشعبية الريفية، كما ظهرت فيه روح مثقف مشبع بالمثل الليبرالية من مثقفي البلدان المختلفة، ونتيجة لكل ذلك تفرد شعر بدر بملامح وميزات مثل جزالة اللفظ، استعمال الأسطورة والرمز، الموسيقى الحادة والاستفادة من الأوزان، الانسياح بدل التمركز، العفوية، الإسهاب بدل التركيز». ومن هنا ومن خلال هذه المشاهد الدرامية المؤثرة التي تحركها أنامل السياب بإيقاع شعره الجميل، لا أخال أن مسار الشعر العربي سيتوقف وإنما سيبقى على مدى الأيام وتعاقب الأجيال خالدًا يضيء الشموع.

عبد الوهاب البياتي
المنفي الكبير

حينما نكتب عن الشاعر عبدالوهاب البياتي، فإننا نكتب عن تاريخ من الشعر العربي والشعر العراقي على وجه الخصوص، فهو واحد من بين الشعراء الكبار إلى جانب نازك الملائكة، وبدر شاكر السياب، ممن شكلوا وأبدعوا في خارطة الشعر الحديث، ولكن بإيقاعات ولغة ومفردات، تمتزج بالعمق أحيانًا وبالبساطة تارة أخرى. وذلك لتكون قريبة من المتلقي وكل من يحبون ويعشقون الشعر. وقد استطاع عبدالوهاب البياتي عبر رحلة طويلة من الشعر، أن يشكل لنفسه مدرسة خاصة فكانت مدرسته بعيدة كل البعد عن التأثر بمدارس شعرية أخرى. وهو الذي عاش منفيًا ومتنقلًا بين الحواضر العربية والعالمية، بعيدًا عن وطنه وأهله في العراق. ولو رجعنا إلى سيرته الذاتية يقول عنه عبدالعزيز شرف من خلال المقدمة لديوان عبدالوهاب البياتي[1]: «بين 1926 ـ 1944 كان مولده في العراق طفولته وصباه وتأثره بالريف وأغاني القرية وتعرفه على العالم من خلال الحي الذي عاش فيه بالقرب من

مسجد عبد القادر الجيلاني في بغداد ودراسته الثانوية ومحاولات البحث عن شكل أدبي من خلال القصة والحواريات والقصائد وفي عام 1944 ـ 1950 التحاقه بكلية المعلمين العليا في بغدد وتخرجه منها حاملًا الليسانس في اللغة العربية وآدابها وإقامته في بغداد واكتشافه حقيقة المدينة المزيفة. وفي عام 1950 صدر ديوانه الأول «ملائكة وشياطين» الطبعة الأولى في بيروت، وفي عام 1954 صدر ديوانه «أباريق مهشمة» في طبعته الأولى في بغداد ثم تتابعت بعد ذلك أعماله من خلال دواوين الشعر التي كان يصدرها تباعًا.

من آخر البستان بل

من آخر الدنيا أتينا

فوق صوت الآخرين

وفي الطريق البرد والعربات

والليل الطويل

ومنازل الموتى وشحاذ هزيل

ونوافذ بيض منورة وآلاف النجوم

تخبو وطائرة تحوم ويعود يحلم

بالمراعي والحقول كالبيدق

المخزول كالحلزون

يحلم بالحقول ويستفيق

على صدى مذياع مقهاه الحزين

والشاعر البياتي الذي عاش متنقلًا بين الدول العربية بعد العدوان الثلاثي على مصر والأردن ودمشق وبعض الدول الأوروبية مثل اسبانيا والمانيا وغيرها من الدول الأوروبية ومن ثم تعيينه مستشارًا ثقافيًا في سفارة العراق في موسكو وغيرها من الأعمال الأكاديمية وأستاذًا في جامعة موسكو لم يكن بعيدًا عن الأجواء الأدبية والثقافية التي كانت في جذوة اشتعالها في تلك الفترة بسبب الزخم الثقافي والمناخ الذي كان يعج بالفعل الإبداعي الحقيقي الذي شكله نخبة من الشعراء والكتاب والمثقفين في تلك الفترة. فإلى جانب إصداراته الشعرية كانت هناك بحوث ودراسات تؤلف ورسائل الماجستير والدكتوراه وكلها تتناول ظاهرة الشعر والقضايا التي تناولها الشاعر عبدالوهاب البياتي». ويقول عنه يوسف القويري في كتابه الكلمات التي تقاتل: «خيل لي أنه أشبه ما يكون بتمثال مقدس من الخشب المصبوغ بالحناء منقوش عبر لحظة ألم عميق من راحتيه ينضح العرق وتتضوع رائحة الكافور وهو يخاطب الآن قبيلة قديمة تحبه وتنتشر من حوله كالجوقة. ذلك عبدالوهاب البياتي الذي لم ينقطع عن الترحال بين بلد وآخر وهو الذي حالت الظروف أن لا يرى بلده العراق حتى وفاته في مقر إقامته في دمشق. لم تكن مسقط بعيدة

عن قلبه، وقد كان لي شرف الالتقاء والتعرف عليه أثناء زيارته إلى عمان، فقد كان رغم قامته الشعرية الكبيرة وجسده الذي أصبح يحمل نتوءات وملامح التقدم في السن وتقاسيم الزمن الذي أصبح ينخر في وجهه وجسمه نظرًا لحالة عدم الإستقرار التي لازمته نتيجة الثمن الذي دفعه لمواقفه وثوابته بالإضافة إلى شعره الذي اتصف دائمًا بالهجوم على خصومه والأنظمة أو بعض مواقف الحياة التي تعرض لها أو ما يتعلق بالقضايا القومية والمصيرية وحالة الضياع والتردي، التي عاشتها الدول العربية في تلك الفترة خصوصًا منذ الانتكاسة في عام 1967م. أقول لقد كان لقاء مفعمًا بالمودة وبالحب الكبير الذي يكنه الشاعر عبدالوهاب البياتي لعمان وأهلها.

مدن بلا فجر تنام

ناديت باسمك في شوارعها

فجاوبني الظلام

وسألت عنك الريح

وهي تئن في قلب السكون

ورأيت وجهك في المرايا والعيون

وفي زجاج نوافذ الفجر البعيد

وفي بطاقات البريد

مدن بلا فجر يغطيها الجليد

هجرت كنائسها عصافير الربيع

فلمن تغني؟ والمقاهي أوصدت أبوابها

ولمن تصلي؟ أيها القلب الصريع

والليل مات والمركبات عادت

بلا خيل يغطيها الصقيع

وسائقوها ميتون

أهكذا تمضي السنون

هكذا وكما هو واضح، فإن عبدالوهاب البياتي لم يكن مجرد شاعر نحتفظ بشعره وبقصائده الجميلة، ولم يكن شاعرًا عاديًا حتى يحاط بالنسيان والاهمال، وإنما هو شاعر مناضل وشاعر أرهقته المنافي، وشاعر أرهقته القصيدة حتى العمق ونحن إذا تهيأت لنا الظروف للتواصل مع الكتابة، فاننا وبكل تأكيد سوف نكتب عنهم واحدًا بعد الآخر وسنظل نذكرهم. (لقد ربط إحسان عباس شعر البياتي وحداثته بجماعة التصويريين جماعة ازرابا وكانت مبادئهم تقوم على استعمال لغة الحديث اليومي في الشعر والالتزام بالشعر الحر ومحاولة إظهار نغمات جديدة تعبّر عن حالات جديدة والاهتمام بالتركيز على الصورة الشعرية. انفرط عقد هذه المدرسة التي تأثر بها لاحقًا بليون ولورانس وأودن وانتقل تأثيرها إلى أميركا وتزعمت

التيار هناك الشاعرة الامريكية ايمي لويل). زاهر الجيزاني كتاب عبد الوهاب البياتي في مرآة الشرق، ويعتبر عبدالوهاب البياتي من رموز شعراء التفعيلة وكما يقول الدكتور صلاح فضل: «ولابد أن نذكر الحركة الثالثة وهي ثورة شعراء التفعيلة الذي سمي بالشعر الحر ومواكبتها للمد القومي في العراق والشام ومصر وهزها الضيف لمنظومة التقاليد الشعرية وتعبيرها لأشكال القصائد، ودخولها منطقة الصراع الايديولوجي القومي الاشتراكي، كما نذكر أبرز رموزها في السياب، ونازك الملائكة والبياتي ونزار قباني وصلاح عبد الصبور وحجازي وخليل حاوي وغيرهم». هكذا، وكما هو واضح فإن عبدالوهاب البياتي لم يكن مجرد شاعر نحتفظ بشعره وبقصائده الجميلة، وإنما هو شاعر مناضل وشاعر أرهقته المنافي، وشاعر أتعبته القصيدة حتى العمق.

من لا مكان

لا وجه لا تاريخ لي

من لامكان

تحت السماء

وفي عويل الريح

أسمعها

تناديني تعال

لا وجه لا تاريخ

أسمعها

تنادبني تعال

عبر التلال.

الهوامش

(1) عبد الوهاب البياني، **الديوان**، دار العودة، بيروت 1972.

الشاعر الماغوط

إن مقولة الرحيل الأبدي، ربما لا تنطبق على من يحفرون أو يضيئون بجهدهم وتعبهم، شمعة في الظلام وفي سفر الخالدين فهم تذهب أجسادهم وروحهم فقط، بينما تبقى أعمالهم الابداعية وغيرها متجددة وتزداد تألقًا على مدى الأيام. والشاعر محمد الماغوط من تلك الفئة التي طالما أضاءت وأبحرت حتى العمق، في بحر الابداع من خلال مؤلفاته وأعماله الأدبية التي تنوعت بين قصيدة النثر والرواية والأعمال المسرحية والسينمائية. وهي الأعمال التي احتضنتها الناس واحتضنتها الجماهير بكل ما تحمله من روح التمرد والتهكم والسخرية. فقد استطاع محمد الماغوط، أن يحدث تغيرًا بنيويًا ودراماتيكيًا في قصيدة النثر، الذي يعتبر واحدًا من أهم روادها إلى جانب عدد من الشعراء مثل أدونيس ويوسف الخال وانسي الحاج وغيرهم وذلك من خلال تبنيه لغة ومفردات حادة وهجومية وإن كانت تبدو غير واضحة أحيانًا. لغة صارمة قادمة من عوالم وأماكن أخرى بكل ما تحمله من تفاصيلها اليومية، وإرهاصاتها الاجتماعية والسياسية استطاع إلى حد ما أن تكسر تلك التابوهات والحواجز الأمنية، وما تثيره من رعب ولا مبالاة. لغة متحررة اخترقت الممنوعات، وكل

الخطوط الحمراء المعروفة لدى الرقابة والرقيب العربي.
هذا الشاعر العربي الريفي البسيط، الذي عاش في بلد وفي حي لم يحصل على ما حصل عليه الآخرون من رقي وتحضر المدينة، المدينة التي تفتح ألف نافذة ليمر من خلالها العابرون وعبر دروبها وأزقتها. عالم يكتظ بالضجيج وصخب الحياة وتنوع طقوسها وتنوع ملامح وجوه البشر فيها وما تحمله من دلالات وملامح النهضة.

تحت مطر الربيع الحار
أنتقل من مدينة إلى مدينة
وحقائبي مليئة بالجراح والهزائم
تحت مطر الربيع الحار
أسير يا حبيبتي وصدرك الشبيه
بشجرة التفاح العارية
يظللني كدخان القطارات
لقد ودعت الكثيرين
ودعت بلادي
وسهولها المحترقة في الليل

تقول عنه زوجته الشاعرة الراحلة سنية صالح: «يعتبر محمد الماغوط من أبرز الثوار الذين حرروا الشعر من عبودية الشكل. دخل ساحة العراك حاملًا في مخيلته

ودفاتره الأنيقة بوادر قصيدة النثر كشكل مبتكر وجديد وحركة رافدة لحركة الشعر الحديث كانت الرياح تهب حارة في ساحة الصراع، والصحف غارقة بدموع الباكين على مصير الشعر حين نشر قلوعه البيضاء الخفاقة فوق أعلى الصواري». وقد أعطت تجربة الماغوط أي تجربة الشعر والسجن، تحديًا آخر وهو يختزن في داخله قراءة متعمقة للأعمال الأدبية والفكرية لكبار الكتاب والمفكرين والأدباء العرب خلال الفترة التي قضاها في السجن. هذا التحدي كان له فيه مرافئ وذكريات وساحات سجال راسخة في الذاكرة العربية. وكما تقول عنه زوجته أيضًا عندما كان في السجن: «كنت أنقل له الطعام والصحف والزهور خفية، كنا نعتز بانتمائنا للحب والشعر كعالم بديل متعال على ما يحيط بنا كان يقرأ مدفوعًا برغبة جنونية. وكنت أركض في البرد القاسي والشمس المحرقة لأشبع له الرغبة».

وفي محطته المهمة ـ مدينة بيروت، المدينة التي تتنوع في مشاهدها وتجربتها، والمدينة التي أنشأت أجيالًا من المبدعين والشعراء الكبار بفضل ما تمتلكه هذه المدينة الساحرة من مناخ ثقافي متميز ومهم في الوقت نفسه يضج بالتنوع المعرفي والاجتماعي والسياسي والفني وغير ذلك. ففي بيروت شارك محمد الماغوط جماعة (مجلة شعر) مع يوسف الخال وأدونيس وأنسي الحاج وتوفيق صائغ وشوقي أبي شقرا وجبرا ابراهيم جبرا في مرحلة مهمة من الابداع العربي حيث أصدر خلالها مجموعة من الدواوين مثل (حزن في ضوء القمر) في عام 1959م وغرفة بملايين

الجدران في عام 1961م والفرح ليس مهنتي، وصدر له قبل وفاته بأشهر قليلة ديوانه الجديد (البدوي الأحمر) عن دار المدى في دمشق. حيث يضم أحدث ما كتبه الماغوط في قصيدة النثر. يقول عنه الشاعر عز الدين المناصرة: «إن الماغوط كان الأنجح من بين زملائه ومجايليه في منح قصيدة النثر نعتها العربي وسمتها الأصيل»، وللشاعر الماغوط إلى جانب كتابته قصيدة النثر الذي يعتبر أحد روادها، عدد من المسرحيات مثل (ضيعة تشرين وغربة وكأسك يا وطن وشقائق النعمان) التي قام بتمثيلها الفنان دريد لحام. كما له عدد من الأعمال التلفزيونية والسينمائية مثل وادي المسك، والحدود والتقرير. إلى جانب الأعمال النثرية مثل (سأخون وطني) ورواية الأرجوحة. والشاعر الماغوط متزوج الشاعرة الراحلة سنية صالح التي صدر لها ديوان شعر في الأيام القادمة. وهو الديوان الوحيد الذي تركته بعد رحيلها وله منها ابنتان هما شام وسلافه.

شعرك الذي كان

ينبض على وسادتي

كشلال من العصافير

يلهو على وسادات غريبة

يخونني يا ليلى

فلن أشتري له الأمشاط

المذهبة بعد الآن

سامحيني أنا فقير يا جميلة

حياتي حبر ومغلفات

وليل بلا نجوم

شبابي بارد كالوحل

عتيق كالطفولة

طفولتي يا ليلى ألا تذكرينها

وعندما نكتب اليوم في رحيل الماغوط، فإننا لا نكتب عنه كأي شخص متوفى ولا نكتب عنه كأي شخص هامشي. وإنما نكتب عنه كأنه مازال حيًا بيننا، يلقي علينا قصائده الغاضبة وشيئًا من نثره الجميل ومشاهد من أعماله المسرحية والسينمائية. ولعلنا هنا ونحن نودع الماغوط في مثواه الأخير، لا نقول له وداعًا وإنما عزاؤنا في الإرث الابداعي الذي تركه في ذكراة الأدب والشعر والثقافة العربية.

لغتنا العربية إلى أين

ربما تبدو الحاجة ماسة لإيلاء مزيد من الجهد لتطوير لغتنا العربية، بما يتوافق والتقدم الحاصل الآن في هذا العصر، الذي ارتقت فيه لغات وسقطت لغات أخرى. وكل ذلك نتيجة عدم الاهتمام وعدم تحمل المسؤولية الكاملة من قبل المعنيين علماء ومفكرين وباحثين أو حتى الحكومات العربية والإسلامية. فاللغة العربية، تهمنا كعرب ومسلمين، فهي أداة تفكيرنا وهمزة تواصلنا مع الشعوب والعالم. فحينما تتسارع الايام وتتسابق العصور، فإنه لابد وأن تسبقها نهضة حية ونهضة فاعلة، من شأنها أن تنتشل إرث الشعوب وحضارتها الراسخة لتضيء شمعة أخرى في مختلف المسارات، ولتعلن من جديد بأننا كأمة عربية مازلنا قادرين على إعادة كتابة التاريخ. وطالما نحن كذلك فإن أهم موصل لنا وأهم مكون رئيس لنا مع الشعوب هو اللغة العربية. فمن خلالها يمكننا أن نتواصل معهم ونتحاور في جميع حقول المعرفة. ولعلنا لا نذهب بعيدًا لنرى مدى المكاسب التي حققتها اللغات الحية الأخرى كالانجليزية واللغة الفرنسية وغيرهما من اللغات العالمية الحية. حيث استطاعت هذ اللغات، أن تضم إليها مختلف الشعوب والأجناس الناطقين بها، وكل ذلك يأتي نتيجة حرص هذه

الدول المتمثلة في حكوماتها وعلمائها ومفكريها وكتابها وشعرائها، كما يأتي أيضًا إلى الدور الكبير، والاسهام الواضح الذي تضطلع به المراكز الثقافية والعلمية الموجودة في مختلف دول العالم، هذا إلى جانب الدور الاستعماري القديم لعدد من الدول. هذا الدور الاستعماري استطاع أن يفتح آفاقًا جديدة للغات هذه الدول خصوصًا اللغة الانجليزية واللغة الفرنسية، حيث استطاعتا أن تغرسا كيانًا قويًا في أوساط الشعوب وتكاد هاتان اللغتان تصبحان من اللغات الرسمية في بعض الدول، لولا فطنة الدول وغيرتها على أهمية المحافظة على اللغة القومية الأم. ويعتبر التفوق العلمي والكنولوجي إلى جانب حركة التأليف والترجمة والنشر وامتلاكها وسائل الاعلام الأكثر تطورًا في العالم كالصحافة والاذاعة والتلفزيون، عاملًا مهمًا ومساعدًا على انتشار رقعة هاتين اللغتين الانكليزية والفرنسية في أنحاء العالم. لذلك فإن النهضة التعليمية وانتعاش الحركة الثقافية، يعتبران صمام الأمان لنهضة الشعوب الحية، الشعوب التي تتطلع في كل لحظة من لحظاتها، وفي كل يوم من أيامها إلى تحقيق الأمجاد والمكاسب ولتحقيق حلم الاستعمار بجميع صوره وألوانه. هذا إذا أرادت الأمة أي أمة، أن تكون لها مكانتها تحت الشمس وفي أي مكان من العالم. وحينما نكتب اليوم عن أهمية إيلاء كل العناية، والاهتمام والرعاية للغتنا العربية لغة (الضاد) لغة القرآن الكريم، التي يبلغ عمرها ما يقارب أربعة آلاف سنة والتي تعتبر من أغنى اللغات وأطوعها إنجازًا وأقدرها صوغًا في

الكلام كما يقول الدكتور رولان سيف، حينما نكتب كل ذلك وعبر إرث يحمل كل هذا التاريخ وهذه الطواعية والسلاسة، فإننا نتساءل في الوقت نفسه أين دور الحكومات والعلماء والباحثين والمهتمين في العالم العربي والإسلامي من انتشال هذه اللغة من نومها العميق ووضعها في مصاف اللغات الأجنبية الفاعلة؟ التي أصبحت تهددنا في وجودنا وكياننا وأصبحت تعمل على إزالة وتهميش وانقراض اللغة العربية من الوجود ومن أهم مؤسساتنا التعليمية والثقافية كما أصبح كل واحد منا يصرف المبالغ الكبيرة لكي يتعلم أبناؤه اللغات الأجنبية بينما تأتي اللغة العربية كلغة هامشية مجردة من أصولها وجذورها الراسخة عبر التاريخ. حتى أن المسؤولين وغيرهم حينما يلتقي كل واحد منهم ضيفًا من الدول الأجنبية تجده يفرح كثيرًا وفي غاية الوناسة لأنه يخاطبه بلغته الأجنبية بينما نجد المسؤولين الأجانب على العكس من ذلك - فهم يصرون على التحدث بلغتهم الأم. رغم تسليمنا بأن هذه اللغات هي لغات العلوم والطب. لذلك وفي هذه الحالة فإنه مثلًا عند لقاء هؤلاء المسؤولين الأجانب أن يتم التعامل معهم بالمثل على الصعيد الرسمي والتمسك بالتحدث باللغة العربية لأن مثل هذا التصرف وحده القادر على المحافظة على لغتنا العربية وتقويتها وانتشارها عالميًا. وأن نعمل على تطوير هذه اللغة في مؤسساتنا التربوية والتعليمية - المدارس والكليات والجامعات. ويجب انتهاج خطط استراتيجية من قبل المنظمات والجمعيات الثقافية والمجامع اللغوية المعنية

بالاهتمام بتطوير اللغة العربية وبدعم من الحكومات العربية والإسلامية. وذلك من خلال تبني فتح مراكز ثقافية في جميع أنحاء العالم لتعليم اللغة العربية أسوة بالدول الأجنبية. إضافة إلى تطوير وسائل الاعلام من صحافة واذاعة وتلفزيون وتشجيع حركة التأليف والترجمة والنشر وتطوير المؤسسات الثقافية من مكتبات ومراكز ثقافية وتقديم وتفريغ الكتاب والشعراء والعلماء وغيرهم. وكما يقول زكريا أوزوك: «لقد شهدت لغات العالم المتداولة اليوم تطويرًا في ألفاظها وتراكيبها وقواعدها وتمكنت بعض اللغات كالانجليزية مثلًا من غزو معظم الأرض لتصبح لغة بديلة لكثير من اللغات السائدة أما لغتنا العربية المقعدة فبقيت جامدة لا بل تراجعت عالميًا ولم يعد يهتم بها حتى أهلها والسبب في ذلك يعود ـ برأينا ـ إلى عنصرين أساسيين أولهما علم النحو وثانيهما الاشتقاق اللغوي من جذور الكلمة العربية لاستيعاب المفردات والمصطلحات الجديدة». ومن المعلوم أن الإسلام وحد لهجات العرب وجعل منهم شعبًا واحدًا يتطور بالاتجاه القومي في ظل العقيدة الدينية الجديدة. وظل علماء اللغة العرب يشيرون بعد الإسلام إلى لغة (تميم) ولغة (طيء) ولغة (هذيل) ويقصد باللغة هنا ما نسميه اليوم باللهجة تمتاز عن شقيقاتها من لهجات العرب باختلاف الأصوات وكيفية نطقها. لكن هذه اللهجات لم تحافظ فيما بعد على نقائها وصفائها، بل دخلتها العجمة وأصابها اللحن من كل حدب وصوب نتيجة التفاعل الاجتماعي بين العرب وغيرهم من الشعوب[1].

وكما يرى هنتنغتون في كتابه صدام الحضارات: «إن اللغة والدين هما العنصران المركزيان لأي ثقافة أو حضارة. وعليه فإن هاتين الميزتين تعدان الأساس في الثقافة العربية وقد جرى التعامل معها بمزيد من الافتئات والحذر والفوقية بهدف شل قدرتهما على التأثير في التطور العالمي الحديث وهذا الهدف تتوزع مسؤولية تنفيذه بين أهل اللغة العربية من غير قصد وبين تخطيط النظام العالمي الحديث»[(2)]. (ولابد من الإشارة إلى أن اللغة العربية كانت بحد ذاتها لغة «عولمة» عندما استطاعت أن تستوعب الحضارات والعلوم والآداب ومصطلحاتها جميعًا فكانت أداة التفكير في صنع التقدم الإنساني. ولا تزال هذه القدرة الكافية فيها على استعداد لاستيعاب التقدم الهائل في مجال التكنولوجيا والاتصالات والأفكار الإنسانية والمعلوماتية وهي تنتظر المبادرة من القرار العربي)[(3)]. إن هذه النماذج التي تمت الاشارة إليها تؤكد من جديد دور وقدرة اللغة العربية على التفاعل مع كل التحولات العالمية وفي جميع المجالات العلمية والفكرية وغيرها إذا ما حظيت بالاهتمام والتطوير المستمر من قبل الحكومات العربية والإسلامية ومجامع اللغة العربية والمؤسسات الثقافية ودور العلم والجامعات وغيرها. (سئل أحد اليابانيين عن توافر الكتب المترجمة إلى اليابانية وإمكانية الدولة القيام بذلك فكان رده أن قليلًا من المؤسسات اليابانية يقوم بهذا الدور، فاليابان بلد اختراع وتكنولوجيا وهو يستوعب العلوم الأخرى المترجمة والآخرون في دور النشر العالمية هم الذين بحاجة إلى

الترجمة اليابانية لأنهم متأكدون أن سوقها متوافر في اليابان)[4]. والسؤال الذي ينشأ لدينا بعد هذه اللمحة من الذهنية العربية كما يقول الباحث يوسف الحوراني هل غير ما تطلبه الحضارة الحديثة للاسهام في مسيرتها؟ إني أخال الذهنية العربية لاتزال سجينة في (قمقم) كالمصدر للغة العربية ولابد لنا من كشف تعويذة تفتح هذا القمقم السحري، وعندها ينطلق العرب لمماشاة لغتهم ومفرداتها المتسعة المدلولات، الضابطة لكل علاقة مهما رهف وجودها وتضاءل فعلها)[5] وقد تم أخيرًا تخصيص يوم عالمي للغة العربية في اليونسكو في الثامن عشر من ديسمبرمن كل عام أسوة بخمس لغات هي الفرنسية والصينية والانكليزية والروسية والاسبانية حيث أشادت إرينا بوكوفا المديرة العامة لمنظمة اليونسكو باللغة العربية في كلمتها الاحتفائية بقولها: «إن اللغة العربية سمحت بنقل المعارف الاغريقية إلى أوروبا غابرًا والتي تساهم في إثراء ثقافات العالم بما تتميز به من قوة تمثيلية».

الهوامش

(1) و(2) و(3) المصدر: مجلة **الشاهد العربي**، عدد فبراير 2009م.

(4) المصدر: مجلة **الشاهد العربي**، عدد فبراير 2009م.

(5) جريدة **الحياة اللندنية** العدد 18154، 17 ـ 12 ـ 2012.

قراءة أولية
لتشكل الوعي المسرحي في عمان

يعتبر المسرح من أهم الفنون، لتشكل الوعي الاجتماعي والثقافي والسياسي. وحينما يصبح المسرح في كامل تألقه ووعيه، يعني ذلك أن المجتمع أصبح يتقدم نحو النضج والوعي بالعالم المسرحي. فمن أدبيات المسرح أنه لا يقف عند موضوع معين، كما أنه لا يمكن أن ينزل إلى مستوى من الحضيض، وإنما هو مفتوح في جميع الاتجاهات والمسارات بغض النظر عن الافكار والمواضيع التي يطرحها المسرح، وهي من الشروط الأساسية لتؤكد مدى التقدم والتطور الذي وصلت إليه الحركة المسرحية في عمان، على الأقل في هذه المرحلة بالذات، لأن تحقيق شيء من الاستفادة هو المطلوب، إذا ما أراد القائمون والمهتمون بالمسرح أن يكون لهم رصيدًا. لقد حان الوقت، لأن نرى فرقة من الممثلين المحترفين وهي تقدم عروضها سواء هنا في السلطنة، أو في خارج السلطنة وللاستفادة من تسويقها في المحطات التلفزيونية أو بيعها في السوق المحلية، والمسرح في الواقع حينما يتطور وحينما يصل إلى مرحلة من الابداع، فإن ذلك يعد مكسبًا للمبدعين والكتاب، ويكون محل جذب وإغراء. فتجد كثيرًا

من المهتمين بالمسرح، والمتخصصين منهم، يتسابقون في تأليف النصوص المسرحية، وكذلك بالنسبة إلى المخرجين، ومهندسي الديكور وغيرهم. إضافة إلى اهتمام وسائل الاعلام والصحافة والنقاد المتخصصين في المسرح. فنحن مثلًا عندما نشاهد مسرحية بشكل مباشر، أو من خلال التلفزيون، فإنها ستبقى عالقة في أذهاننا، خصوصًا إذا كانت هذه المسرحية تناقش قضية اجتماعية أو سياسة معينة أو تطرح أفكارًا جديدة لأن المسرح في الأساس هو مكان لطرح الأفكار والتجريب فكلمة (أعطني مسرحًا أعطك شعبًا) لم تأت من فراغ ولم تأت بشكل عبثي أو اعتباطي، وإنما جاءت إلى الدور الكبير والرسالة النبيلة والهادفة التي ينطلق منها المسرح، في تنوير العقول، وفي ما يبثه من وعي جماهيري لدى شريحة واسعة في المجتمع. وأوروبا في الواقع حينما قامت وتأسست نهضتها الثقافية والفكرية، إنما تأسست على أيدي مفكريها وشعرائها، مثل أفلاطون وأرسطو وأسخيلوس وبيراسيس، الذين يعتبرون من مؤسسي النهضة اليونانية، ثم بعد ذلك النهضات الأوروبية التي تأثرت بالثقافة اليونانية مثل روما واسبانيا وعصر اليزابيث ولويس الرابع عشر من أمثال روسو ودانتي وموليير وراسين وغيرهم. ويعتبر كتاب (الشعر) لأرسطو من أهم الكتب التي تستقي منه جميع الفنون مصدر ثقافتها. وحينما تنهض الامم في الواقع وترتقي فهي تقوم على مدى تقدم الحركة الثقافية فيها وتقدم لغة الحوار ومساحة الحرية، وتتأثر الشعوب فيما بينها من خلال ما تقدمه من ثقافة وابداع راقيين. وحينما يكون الحديث عن المسرح، فإنه لا يمكن

الاشارة إليه، كمجرد التذكير به أو التعريف به لدى الجمهور فالمسرح ليس الخشبة فقط وليس (السينوغرافيا) الديكور والاكسسوارات وليس الممثلين بتلون وجوههم وأجسامهم والملابس التي يرتدونها، إنما المسرح عالم معقد وعالم من الشموخ والكبرياء. فمن خلاله تتداخل كل القيم، ومن خلاله، تطرح الأفكار واللغة الجميلة التي يقودها شخوص المسرحية. ولا يمكن المسرح أن يكون صديقًا للجمهور إذا ما اتكأ على النص الجيد والأفكار التي يطرحها. إضافة إلى الممثلين الجيدين والمخرجين الجيدين الذين يستطيعون أن يتفاعلوا مع النص المسرحي. إضافة إلى توافر النقاد، فهذه العناصر جميعها هي التي تخلق وتؤسس مسرحًا ذا فلسفة متأصلة، وحضورًا جماهيريًا فاعلًا.

ومن خلالهما يمكن الوقوف، على مدى تطور الحوار ومستوى الاخراج والتكنيك المسرحي. وكما يقول عالم المسرح الإدريسي نيكول: «لكي نحكم على قيمة قطعة معينة، من أعمال الفن المسرحي، أن نتمثل المسرح إن لم نكن فيه بالفعل وأن نبذل جميع ما في وسعنا أن نبذله ونحن نقرأ المسرحية لكي نتخيل إخراجها في أحد المسارح بمناظرها والتغيرات المسرحية اللازمة لجميع أجزائها. وهذه العملية التخيلية ليست عملية يسيرة كما قد تبدو لأول وهلة إذ سرعان ما تواجهنا صعوبات تاريخية وسيكولوجية في وقت واحد».

نجيب محفوظ
ورحيل آخر عمالقة الرواية العربية

ربما ليس بالشيء السهل واليسير، أن ننسى كاتبًا مبدعًا كرس حياته من أجل الإبداع والثقافة العربية وتحدى المخاطر وكل الظروف في حياته كنجيب محفوظ أو ننسى تلك الحادثة الشهيرة والعنيفة التي تعرض لها في عام 1994 التي كادت تنهي حياته لولا العناية الإلهية. وحينما نتذكر ونكتب عن نجيب محفوظ اليوم بعد أيام من رحيله، فإننا نتذكر الأعمال الكبيرة والخالدة التي تركها للأجيال والتي تقدّر بسبعين عملًا بين رواية وقصة ومسرحية ومقالات وغيرها من الدراسات الفكرية. وقد استطاع نجيب محفوظ من خلال أعماله أن يبرز حضارة مصر وتاريخ مصر وأن يطرّز تلك اللحظات الجميلة في حياة الشعب المصري ابتداء من الإنسان البسيط والتنوع الذي يتجلى في المجتمع المصري خصوصًا مدينة القاهرة التي ترتكز فيها أهم الأحياء الشعبية والدينية مثل خان الخليلي وسيدنا الحسين والمقاهي المعروفة مثل مقهى الفيشاوي وغيره من المقاهي والمراكز الثقافية. ويمكن القول إن من لا يذهب إلى القاهرة أو مصر فإنه بإمكانه أن يتعرف إليها

من خلال قراءته روايات نجيب محفوظ وكذلك من لا يعرف قرى ومدن وحواري مصر ومقاهي القاهرة وأزقتها وشوارعها وسيكلوجية الإنسان المصري فيمكنه أن يعرف ذلك من روايات نجيب محفوظ وقصصه. وكما يقول الكاتب المعروف عبده وازن: «قد يختصر نتاج محفوظ الهائل تاريخ مصر في القرن العشرين، فهو لم يكن شاهدًا على التاريخ فحسب بل كان أحد صانعيه وأحد الذين بنوه روائيًا ليصبح هذا التاريخ شاهدًا على نفسه. عاش محفوظ القرن العشرين طولًا وعرضًا واختبر معاني التحولات التي يشهدها من غير أن يغادر مصر وربما القاهرة التي أحبها حبًا جمًا». ونتيجة لتلك التجربة التي خاضها وعاشها سياسيًا وثقافيًا واجتماعيًا فقد استطاع أن يميز نفسه بين الروائيين من خلال بعض الأعمال المهمة والمتميزة التي قدمها للقارئ العربي كالثلاثية (بين القصرين والسكرية وقصر الشوق) التي وصفها الكاتب والناقد المعروف فخري صالح بقوله: «وتوصف الثلاثية التي تزيد صفحات أجزائها الثلاثة عن ألف ومئتي صفحة بأنها تنتمي إلى ما يسمى في نظرية الرواية بالرواية النهر أي ذلك الشكل من أشكال الكتابة الروائية الذي يأخذ على عاتقه أن يصور تطور الحياة وتقلبات الحياة السياسية والتحولات الاجتماعية والاقتصادية الكبرى وخلخلة الأفكار والعقائد الايديولوجية في المجتمعات من خلال تصوير أجيال متعاقبة تتآلف فيما بينها وتصطرع». وإلى جانب روايته الثلاثية هناك عدد من الروايات التي لا تقل أهمية مثل ملحمة الحرافيش والكرنك

ويوم قتل الزعيم وخان الخليلي وروايته التي أثارت وأثير حولها الجدل منذ صدورها وحتى الآن وهي بعنوان (أولاد حارتنا) التي تقاطعت أفكارها وبناؤها الفكري بين الدين والأفكار العلمانية التي استطاعت أن تهيج الإسلاميين وعلماء الأزهر في فترة الخمسينيات وحتى وقت قريب. إذن من خلال ذلك كله يمكن القول إن نجيب محفوظ لم يكن كاتبًا إنشائيًا ولم يكن كاتبًا لمجرد أنه أراد أن يظهر اسمه وصورته في الصحافة المصرية. وإنما هو صاحب مدرسة إبداعية لها استقلاليتها وتوجهاتها ولها تجربتها التاريخية وصاحب مشروع قومي ربما اكتمل قبل رحيله، وذلك من خلال توثيقه لكل المراحل التي مر بها المجتمع المصري حتى حصوله على جائزة نوبل العالمية للآداب في عام 1988م. ونجيب محفوظ سوف لن يغيب عن ذاكرتنا وذاكرة المبدع والمتلقي العربي فهو يبدو لنا واضحًا كالشمس من خلال أعماله الروائية ومن خلال بعض الأفلام الجميلة كالكرنك الفيلم السياسي الذي يجسد خبايا وكواليس السياسة والسياسيين في إحدى الحقب المهمة في فترة الخمسينيات والستينيات التي استطاع أن يجسد أحداثها عبر روايته «الكرنك» وخلال السنوات القريبة الماضية كان لنجيب محفوظ مشروع آخر تجسد في الكتب المتنوعة التي أصدرها والتي تناول من خلالها رؤيته وتجربته في مواضيع ومجالات شتى كالتعليم والثقافة والدين وغيرها من المجالات إلى جانب سيرته الذاتية. واليوم وبعد رحيل عبقري الرواية العربية بعد سنوات حافلة من الابداع

والأحداث ربما يمكن القول إن مرحلة جديدة ما سوف تبدأ وتركز على دراسة شخصية وعبقرية هذا الأديب الكبير سواء في مشروعة التنويري وإخلاصه للعمل الابداعي والارث الذي تركه للأجيال أو لأعماله الروائية والقصصية والنقلة الكبيرة التي أحدثها للسينما المصرية من خلال أعماله الروائية التي قدمت في السينما وكذلك حصوله على جائزة نوبل للآداب العالمية في عام 1988، ومحفوظ كما يقول الكاتب البحريني عبدالله خليفه في كتاب نجيب محفوظ من الرواية التاريخية إلى الرواية الفلسفية ظهر من عباءة سلامة موسى ولويس عوض من عباءة العلمانية التغريبية الديمقراطية فصور الواقع المصري بدون تصوير دينه الأساس وهو الإسلام، وراح يركز على تحليل هذا الدين، فظهر ذلك بشكل تصادمي مع أشكاله المقدسة في رواية أولاد حارتنا، بمعنى أنه قام بتجسيد شخوص الأديان المقدسة، فظلت المعالجة قوية وصادمة للعادات.

فلسفة الواقع الثقافي

لا يمكن لأي مشروع ثقافي وإبداعي أن يحقق ذلك المسار المؤثر إذا لم يكن له فلسفة وحضور يؤكدان على مدى التقدم والتطور اللذين وصلت إليهما الثقافة. وعندما يأتي الحديث عن فلسفة الواقع الثقافي، إنما يأتي للدور الرائد والهادف الذي تمثله الثقافة في حياة الشعوب والدور التنويري الذي لا يعرف التراجع ولا يعترف بالفكر الجامد الذي لا يعي دوره في المجتمع. وليست الثقافة التي كل همها الأضواء والتلميع، التي لا يمكن معها الإمساك برهان الابداع، والتقدم الثقافي وبلوغ نهضته التي من شأنها أن تعكس التطور الجاد والمؤثر الذي تشهده حركة الإبداع والثقافة المؤسسة لأي نهضة ثقافية حقيقية. وعندما يأتي الحديث اليوم عن أهمية فلسفة الواقع الثقافي من جديد فإنما يأتي للأهمية التي تكتسيها الثقافة وهوية أي عمل إبداعي يقوم على الاستمرارية والعمل المتواصل وليس العمل الذي تحكمه المواسم ويقوم على أسماء معينة كل همها الأضواء وتكوين الشللية. ولعل وضع خطة أو استراتيجية للنهوض الفاعل من شأنه أن يحقق الأهداف ويقضي على أي تهاون أو أية عقبات من شأنها أن تعرقل

التأسيس الحقيقي لقيام النهضة الثقافية الفاعلة. فالمظاهر وحب الأضواء لا تؤسس أي شيء. وهناك عوامل كثيرة في الواقع ترتبط بعضها ببعض، ولا يمكن أن ينفصل أي عامل عن الآخر ومن تلك العوامل خلق المناخ، وتأسيس دور النشر والمكتبات الجادة والفاعلة، وتأسيس المؤسسات الثقافية والمنتديات الأدبية الفاعلة من خلال قيامها بعمل منظم في التأليف والترجمة بالاتفاق مع دور نشر معروفة لضمان جودته وتسويقه سواء في مجال النقد أو الشعر والقصة والرواية والمسرح والسينما أو غيرها من المجالات ومن خلال كادر مؤهل يأخذ ويعطي. ولا يمكن ذلك أن يتحقق إلا من خلال إعلام مؤثر وصحافة تتفاعل مع أي منجز ثقافي، نظرًا لما للإعلام والصحافة من دور في توصيل رسالة الثقافة وتحقيق أهدافها. ومن ينظر إلى حال ووضع الكتاب اليوم يجد أن الكتبة يزيد عددهم على الكتاب، وهو مشهد سيظل نألفه على مدى أعوام وأعوام مادامت الصحافة لا تريد أن تأخذ بناصية التطور والتقدم والأخذ بأيدي الكتاب الواعدين والحقيقيين والجادين الذين من شأنهم أن ينتشلوا حال ووضع الصحافة من هامش الكتابات الاستعراضية والإنشائية والكتابات التي ليس من شأنها إلا غربلة الذات وإدخال المتلقي والمجتمع في مسارات لا يمكن أن تحقق تلك الأمنيات والأحلام الكبيرة. ولعل إبداء شيء من الاهتمام والجدية بالمشهد الثقافي، من شأن ذلك أن يعيد لملمة ما تبقى من الإرث

الثقافي الذي شهد على الدوام حالة من الانكسار وحالة من التجدد والازدهار. هذا الملمح البارز هو الذي يقودنا اليوم إلى الكتابة عن الواقع الثقافي وواقع الكتابة والصحافة.

السلطة الرابعة

السلطة الرابعة، وبلاط صاحب الجلالة، لقبان يطلقان على الصحافة، وهما لقبان مؤثران من حيث مدلولهما حيث يعطيان للصحافة قوة معنوية ومؤثرة في كثير من الدول والمجتمعات. فالصحافة مصدر مهم للحكومات وللشعوب في جميع النواحي وفي جميع القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها من القضايا. وحينما تكون الصحافة بهذه الأهمية وبهذا المستوى، فإن عليها حقوقًا وواجبات تجاه المجتمع وتجاه الكتاب والعاملين في مؤسساتها. حيث لا تستطيع أي مؤسسة صحفية أن تحقق المعجزات في عالم الصحافة، وحيث إننا لا نريد أن نتناول موضوع الصحافة بشكل عام، فإن الحديث يأتي هنا عن الخدمة والدعم المعنوي الذي يمكن أن تقدمه الصحافة للكاتب خصوصًا ما يتعلق بالجانب المادي، حيث وكما نلاحظ أن الكتابة في الصحافة لم تعد مهمة للصحافة فأن تكتب أو لا تكتب سيان فلا توجد هناك في الواقع علاقة وثيقة بين الصحافة والكاتب الذي يذوب ويحترق كالشمعة، من أجل تقديم عصارة فكره وجهده في المواضيع التي يكتبها بغض النظر عن نوعية هذه المواضيع، فالكتابة أصبحت سلعة سهلة ورائجة، حيث إن الصحافة

توفر لك المساحة ومكانًا لتعليق الصورة ومن خلالها يستطيع أي كاتب بكل سهولة أن يحقق الشهرة، إن هذه النمطية المتبعة وهذا التهميش الكبير لأهمية ودور الكاتب بالنسبة إلى الصحيفة، إنما يأتي للفراغ الكبير الذي تعانيه الصحافة فيما يتعلق بنوعية السلطة والقدرة المالية التي تمتلكها وأيضًا المبادئ التي يمكن أن تخلق أرضية قوية وصلبة بين الصحافة والكاتب، إذ لا يوجد هناك عمل أو مؤسسة ليس بها قانون ينظم العلاقة والحقوق بين الكاتب والصحافة فإما أن تكون صحافة تقتات على الهامش وكتاب الشوارع وإما أن تكون صحافة جادة وتستقطب الكتاب الحقيقيين. فالقرن الواحد والعشرون الذي نعيشه الآن يختلف عن القرن التاسع عشر، وسنوات الثمانينيات تختلف عن السبعينيات فكل شيء تغير الآن والصحافة يجب أن تتغير أيضًا وتعطي كل ذي حق حقه الكاتب الصحفي، والكاتب الأديب، والشاعر، والروائي والمفكر وغيرهم، أما أن تبقى هذه الصحافة على نظرية همش طنش والكتابة لوجه الله، فهي مقولة عفى عليها الزمن ولا تؤسس لشيء، كما أنها لا تعزز مكانة الصحافة، ومكانة الكاتب، وستكون الصحافة هي الخاسر الأكبر، لذلك لا بد من إطلاق المبادرات الإيجابية تجاه الكتاب، من خلال وضع القوانين التي تنظم الكتابة مع الصحافة، وخصوصًا مع الذين هم من خارج الصحافة أي (المستكتبين) فيما يتعلق بالدعم المادي والمعنوي، والعمل على إقامة علاقة وثيقة معهم والتواصل معهم، باستمرار وتوجيه الدعوات إليهم لحضور المناسبات

والفعاليات الصحفية فهناك الكثير من رؤساء تحرير الصحف لا يعرفون أسماء الكتاب (المستكتبين) أو يحاولون الاتصال بهم وتشجيعهم. لذلك فالعمل المنظم هو الذي يعطي الصحافة شكلها وحجمها المتميز واحترامها من قبل الشارع وشريحة واسعة من الجمهور، وهي بذلك تعزز مكانتها كصحافة راقية، لأن تعزيز دور ومكانة الكاتب أمر ضروري لتحفيزه على العطاء، وتطوير إمكانياته الذاتية والثقافية، فالصحافة عنوان البلد وهي نسمة هواء يتنفسها كل فرد في المجتمع، لذلك يجب أن تكون حاضرة على الدوام في مستواها الراقي وفي مبادراتها الإيجابية التي تستطيع أن تحقق طموحات وأحلام القارئ والمتابع لصحافة متميزة في كل شيء، وصحافة قادرة على العطاء حتى في أحلك الظروف، فالمغامرات مهمة وبدونها لن تتحقق المعجزات.

ليلة تدشين الجمعية العمانية للكتاب والأدباء العمانيين

ربما كان الحدث الأهم بالنسبة إلى الكتاب والأدباء العمانيين بمناسبة اختيار مسقط عاصمة للثقافة العربية، تدشين وانطلاق أهم كيان لهم تحت مسمى (الجمعية العمانية للكتاب والأدباء العمانيين) هذا المولود الذي تعسرت ولادته غير مرة، بدأت من الثمانينيات والتسعينيات، حتى ولد ولادة طبيعية في عام 2006 وبعض الولادات تكون متعسرة حقًا، عندما تواجهها بعض الظروف والإشكالات غير الطبيعية والاجراءات والقوانين. ويمكن القول إن الجمعية وهي في بدايتها وانطلاقتها الأولى بدأت كخيمة حاول كثير من الكتاب والأدباء وضع أركانها الأولى ولكنها لم تنجح وحاولوا للمرة الثانية ولم تنجح رغم أن الفكرة كانت موجودة وجميع التوجهات والرؤى كانت محل تطبيق، لكن بسبب عدم وضوح الرؤية لاكتمال البناء المؤسس والقضايا الاجرائية والقوانين التي تتعلق بإشهار مثل هذه المؤسسات الثقافية والجمعيات وغيرها لم تكن جاهزة إلا في عام 2006، كان على الكتاب أيضًا أن ينتظروا دورهم وأن يكونوا مستعدين في أول فرصة تتاح

لهم لإشهار خيمة تظلهم ليبدأوا بعد ذلك مشوارهم الابداعي بشكل حقيقي وفعال ومؤثر في الساحة الثقافية. المهم (الخيمة) وليس مسمى الجمعية أو الاتحاد أو الرابطة أو غيره من المسميات فإننا نعتقد أن كل مشروع بيت يبدأ من الخيمة. فالخيمة هي الأساس في تكوين البيت ذات الخرسانات والأعمدة القوية. ونحن في الواقع يجب ألّا ننظر إلى المسميات وألّا نقتحم أو نقفز القفزات حتى لا تختل الأعمدة وينهدم البيت بما فيه وإنما يجب أن تكون هناك أسس وتوجهات ورؤى يقوم عليها العمل الابداعي والمناشط الثقافية الأخرى التي يجب أن تبدأ منذ اليوم الأول لحفلة التدشين فصاعدًا وأن تبدأ الخطوة الأولى بوضع الاستمارات للدخول في العضوية لكل أطياف الكتاب ومن ثم تحديد اللجان الفرعية التي تختص بكل فرع في مجالات الكتابة والشعر والقصة والدراسات والندوات وغيرها والعمل على إصدار مجلة أدبية تتطلع إلى تقديم الأدب والكتابات الجادة والمتميزة ولها القدرة على مخالفة السائد من المجلات والصحف ووضع خطة طويلة الأمد لتبني إصدارات الكتاب والأدباء العمانيين المنتسبين إلى الجمعية. إن العمل المنظم وإبراز دور الجمعية هما المهم في الفترة القادمة حتى تقف على أرضية صلبة وثابته وتأخذ دورها بين المؤسسات الثقافية سواء على المستوى المحلي أو على المستوى الخليجي والعربي والدولي. ولنا كل الأمل بأن تنال هذه الجمعية حديثة الولادة كل العناية والرعاية والدعم اللامحدود من قبل الجهات الرسمية

المعنية بالثقافة وكذلك من الصحافة العمانية والقطاع الخاص لأن كل مؤسسة يكمل بعضها بعضًا من أجل رفع اسم عمان عاليًا. عمان الثقافة والحضارة والتاريخ، عمان التقدم والرقي. إننا نتمنى كل التوفيق لهذه الجمعية وكل الأعضاء ورئيسها وأن تكون رافدًا كبيرًا للكتاب والأدباء وكل من يرفع راية الثقافة عاليًا وأن تكون خيمة يستظلون تحت رايتها. ولن يضير الجمعية في شيء أن تبدأ تواصلها مع الجمعيات والاتحادات الأخرى في دول العالم وخصوصًا دول مجلس التعاون الخليجي والدول العربية للاستفادة من خبرات المؤسسات الثقافية في تلك الدول وتوجيه الدعوات إليهم لزيارة السلطنة. إن المسار الآن أصبح واضحًا للتوجهات المستقبلية والدور المطلوب من الاعضاء والجمعية للعب دور مؤثر في الحياة الثقافية على الصعيد المحلي ولن يتأتى ذلك إلا بالتعاون والترابط والتكاتف لاجتياز مرحلة البداية والوصول إلى تحقيق الأهداف، وتحقيق الحلم الذي أصبح الآن يتجسد على الأرض ويتجسد في الواقع.

في انتظار شعر جميل

ما الذي يجري الآن في الساحة الثقافية والأدبية خليجيًا وعربيًا من استسهال وترد في كتابة الشعر وفي صياغة المفردات وبناء القصيدة بمختلف أنواعها، حيث يبتعد الترابط بين مفردات وأخرى ويتشتت بناء القصيدة من خلال ظلامية الرؤية والأهداف المراد تحقيقها. وربما يأتي ذلك لعوامل كثيرة ومنها سعي الشاعر للوصول إلى الشهرة على حساب التكوين الحقيقي المتمثل في القراءة المعمقة للشعر العربي وغياب القراءة الدؤوبة والمطالعة المتواصلة لتكوين المخزون المعرفي والثقافي. إضافة إلى فن الفوضى العارم والفراغ الثقافي الذي تشهده الساحة الثقافية من عام إلى عام وعندما تصبح حال الشعر اليوم كحال الأغاني الهابطة والمطربين المحنطين، وتصوير الفيديو كليب لإظهار الصورة وتغييب المعنى ورسالة الفن الجميلة. فإننا لا يمكن أن نراهن على خلق شعر جميل يتغنى به وتردده الأجيال. ولذلك يأتي الحديث اليوم عن ظاهرة تردي الشعر ويظل السؤال قائمًا في غياب المحاسبة والمتابعة المستمرة والضرورية من قبل النقاد والمهتمين بقضايا الابداع والشعر على وجه الخصوص. وعندما يتركز الحديث اليوم على ظاهرة تراجع الشعر بفنياته وموسيقاه وتشتت أركان خيمته

الموروثة منذ عصور الشعر المزدهرة تلك العصور التي تواصلت في حمل لواء القصيدة والشعر العربي وتطويره والارتقاء به إلى المكانة التي جعلته يسمو ويتألق وتتغنى به الأجيال كلما شدها الحنين إليه والاقتراب منه. فإننا لا يمكن أن نتغاضى أو ننسى أهمية أن تكون هناك أرضية صلبة وأرضية خصبة في تنوع المناخ الذي يساهم في صنع الأدب الجميل والابداع الفاعل ألا وهو وجود المؤسسات الثقافية الداعمة لذلك وتوفير المناخ الثقافي المتمثل في تفعيل دور النشر والمكتبات والدعم المادي والمعنوي ودعم الكتّاب والكتاب وإلغاء الرقابة العامة والاكتفاء بالرقابة الذاتية من خلال دور النشر والمطابع على غرار الرقابة الذاتية التي تتمتع بها الصحف إضافة إلى تفعيل الدور الثقافي من خلال وسائل الاعلام المختلفة والاعتراف بدور الكتاب في المجتمع واحتضانهم وتشجيعهم بالمستوى الذي يليق بهم ككتاب لهم دورهم الهام والمؤثر. والابداع في الواقع وظاهرة الركود وتراجع الكتابة الجادة والاتقاء بالشعر بأنواعه إنما هي حالة عامة تعيشها مختلف الدول العربية وذلك نتيجة للتحولات الكبيرة التي طرأت على الإنسان بشكل خاص والمجتمعات العربية بشكل عام والمتمثلة في ارتفاع وغلاء المعيشة والبحث الدائب عن توفير لقمة العيش والسكن وثقل القروض البنكية وغيرها من الأمور الحياتية. إن انشغال الإنسان أو إشغال المبدع الكاتب والشاعر والروائي بمثل هذه المضايقات والمنغصات اليومية والحياتية يساهم بشكل كبير ومؤثر في

تراجع الابداع وتراجع المشروع الثقافي عن تحقيق أهدافه الجميلة والتنويرية. (إن الشعر كما يقول هيجل - أكمل الفنون والوعي الذي يبدعه ومتفوق يمتلك القدرة على أن يبني رؤية شموليته للعالم). وكان على الشاعر كما يقول الدكتور صلاح فضل: «أن يمارس لونًا آخر من الوظائف الاجتماعية والجمالية، فأصبح يعشق الفلسفة والفكر ويبني عالمًا يتغنى فيه بالحرية ومنظومة القيم الإنسانية. أصبح يتخذ موقفًا من الكون والوجود، من التاريخ والواقع من حركة المجتمع وايقاع الحياة، وأصبح يتطلع إلى دور يمارس فيه سلطة الفن وزعامة الابداع». من خلال تلك المشاهد تبرز أهمية الشعر والاعتناء به كضرورة وجودية وحياتية فهو كما يقال ديوان العرب الخالد وإليه تشد الرحال وتهتم به القبيلة، ولأنه كذلك فإن الفلسفة العقلانية تطمح إلى أن يظل هذا الشعر على الدوام لحنًا عذبًا وموسيقى تأوي إليها الروح كلما اشتاقت إلى الجمال والسكون.

كتابات تحلق خارج السرب

تدخل الثقافة اليوم، وخصوصًا الكتابات الابداعية الجادة والواعية، عالمًا يكتنفه الحضور الفاعل والضياع والفوضى. وربما يكون ذلك أمرًا حتميًا في غياب التأسيس الحقيقي، لكل كاتب وغياب المؤسسات الثقافية الفاعلة، التي يمكنها تهيئة المناخ لتكوين النخبة التي يراهن عليها في احتضان الجانب الابداعي وتكوين الكتاب والمبدعين الحقيقيين والفاعلين سواء على مستوى الكتابة في الصحافة والارتقاء بتقنية وفنية الكتابة، أو فيما يتعلق بالخلق والابداع، وهو شرط لن يتحقق في الواقع، إلا من خلال امتلاك كل كاتب ومبدع ثقافة شمولية وثقافة البيئة والمجتمع ومن خلال تنوع معروف في المجتمع في أي دوله وأي مجتمع في العالم. وهذه الأسئلة في الواقع وهذه الشروط هي المحك الأساسي، لأي كتابة حقيقية بمتطلباتها العصرية والآنية. فمنطلقات الكتابة الراهنة أنها يجب ألا تحلق خارج السرب وألا تكون بعيدة عن قضايا المجتمع. لذلك وفي خضم هذه الصورة البانورامية وهذا المشهد إنما يأتي نتيجة لغياب الثقافة المعمقة وتفشي ظاهرة أسلوب ونمطية الكتابة الابداعية بأنواعها في القصة والرواية والشعر

والكتابة في الصحافة التي لا تخرج عن الخواطر والتعبير الذاتي والقضايا النفسية. وهو الأمر الذي ينعكس على ظاهرة حركة النشر والنسبة الضعيفة في الإصدارات في مجمل الدول العربية حيث لا توجد بيننا كأمة عربية وبين الدول الأوروبية وأمريكا أي مقارنة في مجال حركة النشر والتأليف والترجمة وحتى على مستوى دور النشر والمكتبات الأهلية والحكومية التي يجب أن تكون حاضرة ومتفاعلة مع أي نهضة ثقافية حقيقية، وهو أمر لازم لتحقيق الشروط الابداعية والثقافية. وعندما تظل مثل هذه الظاهرة متلازمة من عام إلى عام وتسود ظاهرة التقليد الأعمى بين الكتاب فإن ذلك لا يمكن أن يؤسس لأي نهضة ثقافية يمكن الرهان عليها مستقبلًا، لذلك لا بد من العمل على تبني استراتيجية متجددة في كل عام للنهوض بالثقافة وبالصحافة وكل ما ينضوي تحت الفكر المتقدم والمتجدد وذلك من أجل إظهار المجتمع بالمستوى الذي يناسبه من الوعي ومن الحركة المراد تحقيقها. ويعتبر الموروث الثقافي لأي شعب ودولة هو القاعدة التي تبني عليها الآمال الكبيرة والعريضة باعتبارها تضم تجربة خصبة في مجال العمل الابداعي المتراكم عبر قرون وسنين طويلة. ولعل مثل هذه الالتفاتة هي أهم شيء يجب أن تفعله الدول لحماية مفكريها وصانعي أمجادها والالتفات إلى صناعة الكتابة الجادة والمؤثرة في المجتمع والاهتمام بالكتاب المتميزين والمنتجين على صعيد الكتابة الابداعية بأنواعها والتأليف

والترجمة والاهتمام بنشر المكتبات الحكومية والأهلية الجادة التي تتولى اهتمامًا بتوفير الكتب والإصدارات الحديثة بما يلبي الشريحة المثقفة من الكتاب والباحثين. إن توفير مثل هذه العناية هو الشرط الحقيقي لتطور الثقافة وبلوغ نهضتها الفاعلة والحقيقية.

المكتبات ودورها الريادي

تمثل المكتبات في حياة الشعوب والمجتمعات، الهاجس والشريان الحيوي، للتعبير عن أهم موروث ظل يتناقل ويتفاعل من أمة إلى أمة ومن مجتمع إلى مجتمع. والدول في الواقع، لا يمكن أن تكون لها هوية إلا عندما يكون لها إرث ثقافي يحميها وإرث معرفي يميزها بين الدول والمجتمعات. وتعتبر المكتبات أو العمل في مجال الوراقة، كما اصطلح على تسميتها قديمًا مزدهرًا منذ القدم، وكانت الأندلس مركزًا للعلم إلى جانب مراكز الخلافة (الدولة الأموية والدولة العباسية) والقاهرة وغيرها من حواضر الإسلام المشرقة، وعندما يأتي الحديث اليوم عن أهمية المكتبات بالنسبة إلى الشعوب فهو لا يأتي، تذكيرًا بالحقوق والواجبات أو لمجرد قراءة عابرة وإنما يأتي نتيجة للأزمة ونتيجة للفراغ الكبير الذي أصبحت تعانيه الشعوب والمجتمعات، على وجه الخصوص، في ظل التحولات والغربلة المقصودة لتفكيك المجتمعات وغسل العقول، التي كل هدفها جر العقول المبدعة والمحبة والعاشقة للفكر والابداع إلى الدوران في حلقة مفرغة ومحكمة من خلال ما يعرف بالتقنيات الحديثة وبعض الفضائيات غير المسؤولة. ولذلك يأتي الحديث اليوم عن أهمية ودور الوعي في

ترسيخ الهوية ونشر الثقافة في كل مدينة وقرية، وهي مسائل لا تبحث عن حلول سحرية أو جوهرية ولا تبحث عن تفكير للاعتراف بدور المكتبات وحركة التأليف والترجمة وما تقدمه من خدمة لتغذية العقل وتغذية الروح المشرئبة دومًا لكل ما هو جميل ومفيد. لذلك وعند الاعتراف بهذه الثلاثية فإننا لا يمكن أن نتساءل عن السبب الذي يجعل بلدنا عمان ممثلة في بعض الجهات الحكومية أن تغفل أو تتغافل عن إمكانية التفعيل والتأسيس الحقيقي للمكتبات المتخصصة في الكتب والإصدارات الحديثة إلى جانب تأسيس دور النشر الفاعلة وتوفير الأماكن المطلة على الشوارع العامة إلى جانب الأكشاك التي تقدم خدمة مباشرة لمرتادي الشوارع والأسواق كما هو موجود في العالم. فالكتاب في ظل معوقات الحياة والفراغ الكبير الذي تعانيه الشعوب اليوم يعتبر خير جليس وأنيس على مدى الأيام والسنين الباقية من عمر الإنسان. فإن تقضي الأجيال أوقاتها وراء الكتاب والمكتبات خير من أن تقضيه في اللعب أو أي شيء ليس منه مردود إيجابي. والحضارات في الواقع لم تتأسس على مبادئ الجهل وعلى المظاهر والسيارات الفارهة وإنما تأسست وترسخت على العلم وحب الثقافة والمعرفة المتمثلة في صناعة التأليف وغيرها من الفنون الجميلة. والمستشرقون الذين جاءوا إلى الشرق لم يأتوا من أجل الترفيه عن النفس أو الانغماس في الملذات. وإنما جاءوا ليكتشفوا الواقع العربي والإسلامي والواقع الذي تعيشه الشعوب العربية والإسلامية المتمثلة في

العادات والتقاليد والثقافة ومهنهم وتاريخهم وآثارهم. ويعتبر وجود المكتبات أهم عامل لازدهار الثقافة والفكر وتكوين النخب الثقافية. ويمكننا هنا في الواقع أن نقرأ ونستشهد بما قاله أحد المستشرقين عبر الدور التنويري الذي اضطلعت به الأندلس ويدعى (بول لند) كما جاء في كتاب الاستشراق والوعي السالب تأليف (خيري منصور) بقوله: «لقد كانت الثقافة الإسلامية هي بالأساس ثقافة كتاب فإدخال الورق، الابتكار القادم من الصين أعطى زخمًا جديدًا نحو التعليم ونحو الفكر، فقد أصبحت الكتب في قرطبة أكثر توفرًا منها في روما وأرخص ثمنًا، وعلى سبيل المثال باع رجل في القرن الثاني عشر الميلادي، مائة وعشرين فدانًا حتى يشتري (كتاب الساعات) وفي القرن التاسع كانت مكتبة (ديرسان نحال) تفاخر بأنها الكبرى بين زميلاتها في أوروبا وكانت تعتز بأن لديها (ستة وثلاثين كتابًا) بينما احتوت مكتبة قرطبة في ذلك الوقت على (نصف مليون كتاب)». إن مثل هذا الكلام في الواقع من مستشرق يمتدح الدور التنويري والثقافي الذي كانت تقوم به الأندلس يجعلنا نزداد فخرًا ويعطينا الأمل بأن تضطلع الحكومات في الدول الخليجية والعربية بدور أكبر في خدمة الثقافة العربية.

فلسفة القراءة

في كل العصور تظل القراءة هي الهاجس الدائم لكثير من الشعوب التي تسعى إلى التطور وبناء قدراتها الذاتية والعقلية، وأيضًا بناء دولها في مختلف المجالات لتصل إلى مصاف الدول المتقدمة ثقافيًا وفكريًا. وحينما يكون للقراءة فلسفتها الخاصة إنما هي بذلك تعبر عن دورها البنّاء في قيادة حركة التنوير والتغيير في المجتمع، فالقراءة مهمة لجميع الأطياف، المعلم في حقله التعليمي، والطبيب في مجاله الطبي والمهندس والكاتب وغيرهم من أصحاب المهن. ومع التطور الحاصل الآن في عالم الطباعة، وآلاف المطبوعات والإصدارات التي تلفظها المطابع في كل يوم وفي جميع المعارف، لم يعد هناك مبرر للابتعاد عن القراءة واقتناء الكتب المفيدة، رغم الظروف المعيشية ومشاغل الحياة في هذا العصر التي أصبحت فيه الحياة أشبه بالطواحين الهوائية تطوح بالإنسان في جميع الاتجاهات ولكن رغم كل ذلك تبقى الإرادة الصلبة والإيمان القوي لمجابهة التحدي أهم سلاح لتحقيق النصر أمام كل العوائق والعقبات والمنغصات الحياتية ونظرًا لأهمية القراءة في حياة الشعوب الواعية والمتحضرة فقد أصبح للقراءة فلسفتها الخاصة فمن أجل قراءة سليمة تم

تأليف الكتب واهتم الكثير من الباحثين والأكاديميين والمبدعين بإيجاد الطريقة المثلى التي تمكن كل إنسان وكل فرد من تحقيق الغاية والوسيلة الناجحة لتحبيبهم بالقراءة، وتكوين نوع من العلاقة الحميمة والصداقة الوثيقة مع الكتاب، حيث تهدف هذه الكتب إلى تقديم النصائح والخطوات الفعالة التي تساعد القارئ، سواء كان قارئًا نهمًا أو قارئًا بطيئًا على كيفية إتقانه للقراءة الصحيحة التي من ضمن شروطها السرعة في قراءة واستيعاب والتهام عدد من صفحات الكتاب في ثوان ودقائق معدودات وبغير ذلك أو أن تكون قراءتك بطيئة فإن القارئ لن يحقق شيئًا من القراءة ولن يستطيع أن يقرأ إلا كتابًا واحدًا في السنة. وترجع أهمية القراءة للفرد لدورها في تثقيفه وجعله مميزًا ومتحدثًا لبقًا ومثقفًا موسوعيًا يشار إليه أينما كان في مجتمعه وفي أي مناسبة من المناسبات. إذن فالقراءة وأهمية أن يكون الإنسان قارئًا، هما أمر ضروري وأمر يستشعره الإنسان الواعي والإنسان العاقل الذي يمتلك القدرة والشخصية الكاريزمية الخلاقة والمبدعة، وليس أي شخص آخر يعيش حياة جشعة وحياة بوهيمية راكضًا وراء المال ومتسكعًا في الشوارع وغيرها من أماكن اللهو واللعب. ومن أجل تحقيق قراءة صحيحة ومفيدة لابد وأن تتوافر كل الشروط وتتهيأ كل الظروف سواء كان ذلك في المنزل أو في خارج المنزل. وقراءة الصحف تختلف عن قراءة الكتب، فالصحف يجب أن تقرأ في المقاهي لأنها صحف يومية تحمل مواضيع متنوعة والروايات مثلًا، أما قراءة

الكتب الجادة والرصينة فهي محتاجة إلى مكان آخر فهي في حاجة لأن يخلق معها القارئ حوارًا وتفتحًا ذهنيًا وتفعيل الحواس والمقدرة على الاستنباط والتحليل والتلخيص كلما كان ذلك مهمًا وممكنًا، ومسألة الحرص على متابعة الجديد في عالم الكتب واقتنائها ليس صعبًا وليس مستحيلًا، ولكن ما هو أصعب أن يشتري كل واحد منا مجموعة من الكتب وربما أنا واحد منهم ثم يجعل الكتب تتراكم بعضها فوق بعض لفترة زمنية وعندما يأتي لقراءتها يجد صعوبة في أي كتاب يقرأ أولًا، لذلك يحب على كل واحد منا أن يقرأ الكتب أولًا بأول وإلا ستكون هناك مشكلة كبيرة إذا ظلت الكتب متراكمة لفترة زمنية طويلة. إن الذي شجعني على أهمية أن أكون قارئًا نهمًا هو معاينتي وقراءتي لكتاب وجدته مصادفة في إحدى المكتبات يعلم كل من له اهتمام بقراءة الكتب كيفية القراءة الصحيحة وتختصر سنوات الضياع وأيضًا انتشالها من التراكم والغبار. وتبقى في أذهاننا تلك المقولة الخالدة (وخير جليس في الزمان كتاب).

حول الملاحق الثقافية والتعليم

في حال الوضع الذي أصبحت عليه الكتابة والثقافة، هل يمكن تفسير هذا التراجع في عدم فهم جيل الكتاب والمثقفين الجدد ما يعني ويرمي إليه مفهوم الثقافة المرتبط بمجموعة أعراف وتقاليد وسلوك راسخة تم التعبير عنها منذ قرون، حتى يصبح حال الثقافة والكتابة كالذي نشاهده اليوم والمتمثل في عدم الاكتراث لتحمل المسؤولية في نوعية المواضيع الأدبية والثقافية التي تنشر في الملاحق الثقافية في مضمونها ومستواها وتوجهها للمتلقي، والتي يمكن وصف البعض منها لا يعدو أن يكون مجرد فقاعات وسرد لحالات نفسية وشخابيط متوشحة بالاستسهال الكلامي، حتي يصف كتابها بالشعراء والكتاب الكبار والمفكرين وما هم كذلك في الواقع وإنما يتم نشرها لملء فراغ الصفحات وغربلة ذهنية المتلقي. وعندما يصبح حال التوجه العام بهذه النوعية من الكتابات التي تنشر في الملاحق الثقافية والتي تسمى (إبداع) وتسمى (تجريب) وهي بعيدة كل البعد عن رسالة الأدب والثقافة وقوة وهيبة الكتابة، تلك الكتابة وتلك الرسالة التي كل هدفها تأسيس الثقافة الجادة والواعية والمتجددة التي تساهم في تنوير المجتمع، وتساهم في تأسيس ثقافة جديدة ومغايرة تقترب من الأجيال وتأخذ بهم

إلى بناء النهضة الحقيقية والنهضة التي من شأنها أن تضيف شيئًا جديدًا، في الموروث وثقافة الأجداد، لا إلى ثقافة وكتابة فارغة مجردة من شمولية المعرفة والثقافة. وحينما نتوجس مثل هذا الاستسهال الصارخ في النشر إنما يأتي ذلك لضرورة أن يقوم المشرفون على هذه الملاحق الثقافية، بواجبهم تجاه ذلك، ولعل الفراغ الثقافي المتمثل في عدم وجود دور النشر والمكتبات الجادة من شأنه أن يخلق حالة من عدم الاستقرار وبلوغ الثقافة وحركة الإبداع الجادة والمؤسسة لأهدافها وبلوغ نهضتها الفاعلة والحقيقية. وعندما نأتي للمقارنة بين الملاحق الثقافية التي تصدر في صحافتنا والملاحق التي تصدر في الصحافة الخليجية والعربية، نجد أن هناك فرقًا شاسعًا في مستوى ومضمون وتنوع المواضيع والطرح نظرًا لاستكتابهم لكتاب ونقاد متحققين ومعروفين في الساحة الثقافية والأدبية.

وعندما يأتي الحديث اليوم عن هذه الظاهرة، إنما يأتي للأهمية والتنبيه لما تعنيه وتمثلة الثقافة للشعوب وللمجتمع من هاجس يومي وهاجس يدخل في صميم اهتمامات الشعوب الحية والواعية واهتمام الدول أيضًا لما تمثله حركة الإبداع والثقافة من تنشيط للذاكرة والتواصل مع شعوب العالم. ولا يمكن في الواقع أن تقوم أي نهضة ثقافية على المظاهر والقشور والسيارات الفارهة، وإنما تقوم وتتأسس على العلم والبحث الدائم وتطوير برامج التعليم وبناء الجامعات الحكومية والأهلية وتسهيل الالتحاق بها برسوم منخفضة وفتح التعليم للجميع حتى لو كلف ذلك التعليم

عن بعد إذا كانت قاعات الجامعات مكتظة بالطلبة. فالتعليم هو الأساس وعلى وزارات التعليم أن تقوم بوضع الاستراتيجيات والتخطيط السليم، وبغير ذلك تدخل المجتمعات في الظلام وتزداد نسبة الجريمة والتشرد في الطرقات واقتراف سلوكيات شاذة بعيدة كل البعد عن الأخلاقيات المعروفة والأهداف النبيلة التي يرمي من خلالها أي مجتمع متماسك تسوده المحبة.

مستقبل صناعة النشر في عالمنا العربي

ربما من الشيء المحزن، أن نرى مثل هذه الصناعة الجميلة في عالمنا العربي، تقترب من التلاشي شيئًا فشيئًا وهي التي بدأت خلال السنوات القريبة الماضية تبدو أكثر نضارة وأزهى عودًا وأكثر رقيًا في طباعتها وتصاميمها لمختلف أحجام الكتب. لكن هذا الحلم الجميل وهذه النقلة النوعية والحضارية في عالم الطباعة والجهد الكبير الذي تقدمه دور النشر في لبنان وعاصمتها بيروت رغم الوضع المتأزم والحرج التي تمر به هذه المدينة العظيمة في كل شيء خصوصًا على مستوى التنوع الثقافي والفكري والسياسي والاجتماعي. والعواصم الجميلة الأخرى كالقاهره ودمشق وبغداد وبلدان المغرب العربي. هذه العواصم التي مازالت تمثل القلب الثقافي النابض للأمة العربية والمراكز الثقافية المعروفة على مدى حقبة وقرون طويلة من المد المعرفي ولأن سقط الضلع والمركز الإشعاعي العريق هو العراق وعاصمته بغداد التي كانت البصرة تمثل حاضرة العلماء العمانيين وكأنها غدت قطعة عمانية بسبب وجود نسبة كبيرة من علماء عمان في تلك

القرون الغابرة. وحينما يأخذنا الحديث اليوم عن صناعة النشر في عالمنا العربي فإنما ذلك يأتي للدور الكبير الذي يجب أن يكون كبيرًا بالفعل. كيف لا وهي تقدم عصارة الفكر الجميل والثقافة والابداع الجميل لكبار الكتاب والمبدعين في عالمنا العربي وغيرهم من الكتاب المعروفين في العالم. هذا الدور التنويري في الواقع الذي أصبحنا نخاف عليه من الانهيار في ظل تنوع وسائل المعرفة السمعية والبصرية التي تقدمه الصناعة الحديثة مثل أجهزة الحاسوب والإنترنت والبرامج الهابطة التي أصبحت تقدمها بعض القنوات الفضائية وغيرها كثر. إلى جانب الدور الهامشي والمغيّب تمامًا الذي تمارسه الحكومات تجاه الثقافة. حيث نجد أن بعض الدول في عالمنا العربي لا تعطي أي أهمية للثقافة فكثير من الدول لا تجد فيها دور نشر تقوم بعملية الارتقاء بالكتاب وتسويقه في العالم أو تبني نهضة ثقافية شاملة من خلال تخصيص شارع أو منطقة تخصص للمؤسسات الثقافية والمقاهي والمكتبات وغيرها حتى يمكن أن نقول إن هناك نهضة ثقافية حقيقية لها دورها في المجتمع. إن الأمل في الواقع إذا ما استمر الوضع العالمي على ما هو عليه الآن من غلاء في المعيشة وغلاء في مختلف مناحي التجارة والسوق والأوضاع الاقتصادية المتردية في الدول العربية وطغيان مظاهر الفساد والطبقات والمحسوبية وتكريس القبلية سوف تبدو الآمال ضعيفة على المدى البعيد، وإن انهيار أو تلاشي الدور التنويري والريادي الذي تقوم به دور النشر سيكون أمرًا حتميًا. وإنني

كواحد ممن يحبون ويعشقون الكتاب أفرح كثيرًا عندما أرى مكتبة جميلة في بلدي عمان أو غيرها من الدول الخليجية والعربية وهي تعرض أجمل الدرر من الكتب وتزهو بألوانها الجميلة. هذا الفرح في الواقع وهذا الألق الباهي والمعتق بفكر وعقول العلماء والمبدعين سوف ينعكس على كل أفراد المجتمع وسيعيشون سعداء حيث يمر كل واحد منهم على جانبي الشوارع وقد اصطفت أمامه المكتبات وافترشت أرضيات الشوارع والميادين بالكتب. إنها حياة فعلًا وأي حياة أكثر من رائحة المعرفة والثقافة في عصر أصبحت تضيع فيه القيم ويختلط السوقة بالانحطاط وتزييف الواقع الجميل بالقشور والمظاهر وبمخططات استعمارية تلعبها الدول الاستعمارية الكبرى مثل أمريكا وغيرها من الدول الأوروبية وما يحدث في العراق الآن خير شاهد على ذلك وقبله قضية فلسطين وفي الطريق أكثر من خارطة ربما سيتحدد معالمها لاحقًا. لكن رغم ذلك لا يمكن في الواقع البقاء على هذه الحال فالشعوب ستقول كلمتها إذا عجزت عن الحصول على الاستمتاع برغد معيشتها والحصول على لقمة عيشها في بلدانها. فالتاريخ لابد سيعيد دورته من جديد وستكتب الأيام القادمة تاريخها الجديد بنهضة ثقافية جديدة لا يمكن لها أن تموت أبدًا.

الصحافة العمانية ودورها الثقافي

حينما يأتي الحديث عن الصحافة العمانية، منذ نشأتها وإطلالتها على القارئ العماني في عام 1971 فإن هذا سوف يتركز على الصحافة الرائدة، في تلك الفترة التي تأتي في طليعتها إلى جانب صحيفة الوطن وعمان ومجلة السراج ومجلة الغدير مجلة العقيدة إحدى الصحف المتميزة في ذلك الوقت، التي كانت تخصص صفحات ثقافية متنوعة وكانت تمثل ملتقى لكثير من الكتاب والشعراء العمانيين الذين كانوا في تلك الفترة يبحثون عن مكان ما تحت الشمس لنشر إبداعاتهم، ليضيئوا بكتاباتهم وما يمتلكونه من معرفة في مختلف الفنون الأدبية، كالشعر والقصة والمقالة إلى جانب المواضيع التي تطرح للنقاش. وقد استطاعت مجلة العقيدة من خلال تقديمها هذا المنبر الثقافي المتميز والجريء في الوقت نفسه، أن تكون في طليعة الصحف والمجلات العمانية التي يشار إليها وكان أغلب الكتاب والشعراء والقصاص العمانيين يشدون الرحال إليها ولم تمنعهم المسافة رغم تباعد الطرق في عمان في تلك الفترة، نظرًا لوعورة الطرق وانعدامها في مناطق أخرى. وحينما يكون هذا التحول وهذا المنعطف الدراميتكي الكبير في المجتمع العماني، في تلك الفترة الصعبة في حياة عمان

والعمانيين يأتي من خلال الصحافة وهي الأهم، رغم الانغلاق الجغرافي وقلة التواصل، مع العالم الآخر الذي يسبقنا بقرون وبفترات زمنية طويلة من التطور والتقدم في جميع مجالات الحياة. فإن ذلك يبعث في النفس النشوة والارتياح، ويبعث في النفس قدرة المثقفين العمانيين في تلك الفترة، وعلى رأسهم الخبرات العربية من لبنان ومصر، ونذكر منهم الأستاذ حسين كريم من لبنان وأحمد سليم اللذين ارتقيا بمجلة العقيدة خلال توليهما رئاسة تحرير مجلة العقيدة. وحينما نذكر أجواء ومناخ مجلة العقيدة، فإننا نذكر وبكل تأكيد الصديق الشاعر مبارك العامري، الذي عمل مديرًا لتحرير مجلة العقيدة في تلك الفترة، ومشرفًا على الملتقى الثقافي الذي استطاع أن يفتح من خلال إشرافه على ذلك الملتقى أشبه (بالصالون الأدبي) وكان يعتبر بحق قبلة لنا نحن من يتلمسون بداية الكتابة، في بداية الثمانينات ومن مثل الشاعر محمد الحارثي والشاعر عبدالله الريامي ومحمد القرمطي ويونس الأخزمي والشاعر أحمد الوهيبي والكاتب محمد اليحيائي وأبو اليقظان عبدالله الحارثي ومحمد الدرمكي وبدر محمد ابراهيم وشبر الموسوي وخالد منصور وابراهيم المعمري الذي تولى رئاسة تحرير جريدة عمان فيما بعد والكاتبات مثل بدرية الشحي وتركية البوسعيدي، وقد استطاع هؤلاء الكتاب والشعراء أن يرتقوا بتلك الصفحات الثقافية إلى مستوى من التطور والتجديد سواء في كتابة المقالة أو كتابة الشعر وبالتحديد قصيدة النثر وقصيدة التفعيلة والقصة وغيرها من

الكتابات النقدية. ويمكن اعتبار تلك الفترة هي بداية الانطلاقة الأولى، للكتاب العمانيين والبعض منهم متواصلون إلى اليوم، ومنهم من توقف والتزم الصمت. وقد أحدث تطور تلك الكتابات نوعًا من الصدى لكثير من الكتاب في منطقة الخليج ومصر والمغرب العربي حتى تكونت بعض العلاقات، بين بعض الكتاب العمانيين وأخوانهم من الكتاب في دولة الامارات ودولة البحرين والسعودية كما كان هناك تواصل مع بعض الكتاب والشعراء من المغرب مثل مصطفى الزارعي، وعزيز الحاكم. وكان للدوريات الثقافية التي كانت تصدر في دولة الامارات والبحرين مثل المجلات العربية ذات الشهرة مثل مجلة الآداب البيروتية ومجلة فصول وغيرهما حيث كان لتلك المجلات دور تأثيري في محيطنا الثقافي، نظرًا للمواضيع الجادة التي كانت تطرحها لعمالقة الفكر والثقافة العرب ونظرًا للتأثير الإبداعي المتقدم والمتنور الذي أضاءه أولئك المبدعون العرب. فقد استطاع هذا التأثير وهذا الوهج الابداعي الجميل أن يضيف رصيدًا ثقافيًا إلى كثير من الكتاب والشعراء سواء في عمان أو في دول الخليج. وهو ما نلمسه اليوم في نماذج الكتابات والكتاب سواء التي تنشر في الصحافة والدوريات الثقافية، أو الاصدارات من الكتب. حيث أصبحت هذه الكتابات تتميز بالنضج المعرفي وامتلاك الأدوات الكتابية كما شمل هذا التطور مختلف الأجناس الأدبية، كقصيدة النثر، التي أصبحت تأخذ طريقها ومكانتها في الأوساط الأدبية وأصبح لها كتابها

ومتذوقوها. والشعراء الذين يتقنون كتابتها وفنها الذي يجب أن يكون راقيًا ومتدفقًا بفن الايقاع الجميل والأفكار الهادفة، التي تستطيع أن تحدث صدى وتكون أكثر قربًا من الناس أو المتلقي. هناك أيضًا القصة والرواية حيث أصبح لهما كتابهما في عمان وأعدادهم في تزايد مستمر، وكذلك بالنسبة إلى المسرح والمقالة وغيرهما من الأجناس الأدبية. وحينما يكون حديثنا اليوم، عن الدور الابداعي والنقلة النوعية التي أحدثتها الصحافة العمانية، وخصوصًا مجلة العقيدة. فإن ذلك يأتي للدور الثقافي والابداعي الذي كانت تضطلع به مجلة العقيدة من خلال تميزها بملتقاها وصفحاتها الثقافية في تلك الفترة المهمة. ونحن ما زلنا نطمح خصوصًا في ظل التطور الحاصل الآن في تكنولوجيا الصحافة والاعلام وفي ظل الفضاءات المفتوحة أن تكمل الصحافة العمانية ومجلة نزوى هذا الدور المتميز منذ انطلاقتها الأولى.

ثمن الحرية الجديدة

في عالمنا الحديث المليء بالصدامات والتقليعات الجديدة والمليء أيضًا بصعوبة الحياة ومتطلباتها رغم ذلك نطالع كل يوم ثقافات ومسميات ومصطلحات جديدة تهب علينا من أناس يمكن أن يقال عنهم بأنهم فارغو العقول أو مهمشون في مجتمعاتهم، وهي مسميات ومصطلحات تأتي دائمًا تحت شعار الحرية والاستقلالية والصحافة الحرة. ونتيجة كل هذه الإرهاصات التي تمر علينا كل يوم سواء كانت من المجتمعات الغربية أو صحافتهم أو حتى من وسائل إعلامهم (الحرة) نشعر ونحس بثقل واشمئزاز كبيرين لا يمكن تقبلهما. والذي نريد أن نقوله هنا هو ذلك الحدث الملغم وغير المسؤول الذي أحدثه الرسام الدنماركي في صحافة بلاده وبالتحديد في صحيفة (يلاندز بوستن) من إساءة متعمدة مقصودة إلى نبي الإسلام محمد ﷺ هذا الإسلام أصبح يزداد قوة يومًا بعد يوم وحينما تكون مبادئ الحرية والثقافة التي تتكئ عليها صحافة الدنمارك ومعها الصحافة الأوروبية بهذه الصورة وبهذا السلوك فإنها تصبح ناقصة وحرية تحتاج إلى إعادة نظر من قبل المشرعين ومن قبل العقلاء والحكماء وكل من انتهج وأسس هذا البناء العظيم من صروح الحرية، فالذي نعرفه

عن الحرية أنها تقوم أو تتأسس على دماء وكفاح الشعوب ومدى مقاومتها للظلم وحفظ المعتقدات والمقدسات من أي تدنيس أو مكروه، كما أن الحرية هي روح الشعوب العظيمة ومصدر ثوراتها عبر التاريخ. لا أن تكون معول ومصدر هدم لما بنته الشعوب. كما أن الحرية لا تدخل في الاعتداء على الديانات وتحقيرها أيا كانت هذه الديانات وقد كان الشيء المحزن في الواقع ونحن نتابع القنوات الفضائية أن يأتي المسؤولون الدنماركيون ويصرون على مواقفهم برفضهم الاعتذار للأمة الإسلامية عن تهجمهم على النبي محمد ﷺ بدعوى أن الدنمارك بلد الحرية وأن ذلك العمل جاء من منطلق المبادئ والحرية المطلقة التي تتمتع بها الصحافة الدنماركية. إن هذا الاصرار والتعنت إن دل على شيء فإنما يدل على عدم تحمل المسؤولين الدنماركيين مسؤولياتهم الكاملة وأن موقفهم هذا سوف لا يبرئهم ولا يبرر أعذارهم حتى ولو حاولوا أن يظهروا بمظهر النادمين على فعلهم. ولعل الأمة الإسلامية تدرك الآن أن الوحدة والوقوف صفًا واحدًا هما السبيل الوحيد لمواجهة كل من يحاول الاعتداء على الإسلام. وإن أفضل طريق هو العمل الذي تم تنفيذه بمقاطعة المنتجات الدنماركية مهمًا كانت أهميتها. والعمل على مواجهة تلك الاساءة بالنشر في وسائل الاعلام الأوروبية لتوضيح رسالة الإسلام ولو رجعنا إلى التاريخ نجد أن ذلك العمل أو ذلك الفعل الذي ارتكبه الرسام الدنماركي لم يأت من فراغ وإنما نتيجة لتراكمات عنصرية سحيقة وهو ما عبر عنه المفكر إدوارد سعيد في

كتابه (الاستشراق) من خلال استشهاده بنماذج من الآراء المشوهة والأحكام الخاطئة التي كان يحملها ممثلو العقل الغربي والثقافة الأوروبية حول الشرق من أمثال هوميروس وأسكيلوس ويوربيديس ودانتي في عملية تشويه كما يقول صادق جلال العظم لواقع الشرق وتحقير لوجوده من جانب الغرب وفي سبيل تأكيد فكرة تفوق الغرب يشكل ظاهرة قديمة قدم حضارة الغرب وثقافته وفكره ثم إن مثل هذه الاعمال إذا كانت ستستمر في اتخاذ مثل هذا المعنى المتطرف للإساءة إلى الديانات والمعتقدات التي ينبغي أن تكون في منأى مهما كانت العصبية والغلو اللذين يبديهما بعض المتطرفين في أوروبا فإن ذلك لن يخدم الصحافة في شيء من خلال تطلعها وتطلع الشعوب معها إلى منبر حر يخدم مصالح الشعوب في وجه الممارسات القمعية وخلال الأيام الماضية وبينما أتنقل لمشاهدة بعض القنوات الفضائية كان هناك لقاء أجرته محطة روتانا مع الممثل العالمي عمر الشريف وكان من ضمن كلامه الحديث عن الديمقراطية في العالم والدول العربية فقال: إن كل الذي تشاهدونه لا يمت بأي صلة إلى الديمقراطية فهي ديمقراطية مزيفة تشترى بالفلوس ويكفي أن نلقي نظرة على المجالس النيابية فهم مجرد نائمين في بيوتهم حتى أميركا لا توجد فيها ديمقراطية وإن من يمارس الديمقراطية على حقيقتها هم الشعوب المثقفة. إن مثل هذا الكلام عن الديمقراطية هو الذي يلتقي اليوم حول مدى أهمية الحرية عندما تحترم وعندما تمارس بشيء من الأخلاقية والسلوك الذي من شأنه أن يحفظ

ويحافظ على كرامة الشعوب ويحفظ الديانات من أي تحقير ولو رجعنا إلى القاسم المشترك بيننا وبين أوروبا نجد أننا نلتقي في كثير من المصالح وأن تبنى لغة جديدة وأيديولوجية جديدة أيضًا من قبل المتطرفين اليمينيين في الدنمارك تجاه الإسلام والمسلمين معنى ذلك يؤكد على صدق تلك النظريات فيما يعرف بصدام الثقافات وصراع الحضارات تلك النظرية التي نادى بها هنتنغتون في كتابه (صراع الحضارات) وهي إذا ما تحققت فإننا سنعود إلى حروب صليبية أخرى مع أوروبا ويكفي ردة الفعل التي نشاهدها اليوم في كل مكان من قبل الشعوب الإسلامية الغاضبة التي قامت بأعمال تخريبية في كل من دمشق وبيروت تجاه المصالح الدنماركية وهو ثمن الحرية التي ينادي بها المسؤولون الدنماركيون والتي لم تكن حرية موفقة وإنما هي الثمن الذي أصبحوا يدفعونه اليوم وغدًا.

ثقافة التحول: الذات والمجتمع

لا يوجد أي قول آخر، على ضوء المعطيات الجديدة في ظل الركود الحاصل الآن الذي أصبحنا نعيشه كخبز يومي خصوصًا على صعيد الكتابة التي تستهلك منا الكثير فهي تريد من يعتني بها على الدوام والسهر على رعايتها وتنشئتها حتى يكبر عودها وهذا الاعتناء بالكتابة لا يمكن أن يأتي بالصدفة وبين لحظة وأخرى وإنما بالممارسة والاطلاع المتواصل على قراءة الكتب بأنواعها بوزنها وخفتها أو كعنوان رواية كونديرا الكائن لا تحتمل خفته وعندما يصل الكاتب إلى مرحلة التشبع ويصل القارئ إلى مرحلة الحصول على الكتاب بأي ثمن تكون الحصيلة متساوية بين الكتاب والقارئ في تحقيق البناء الثقافي والمعرفي وعند ذلك يبدأ مشوار التحول الثقافي إلى إعطاء المزيد من التنوع المعرفي بالنسبة للكاتب / القارئ/ المجتمع. هذه الثلاثية أي ثلاثية الكاتب/ القارئ/ المجتمع هي التي ستقود صرح التطور الثقافي وتحقيق مناخ الحرية والتنوع والروح الأصيلة التي يكون لها القدرة على امتطاء صهوة التحول بمعناه الحقيقي وليس بمعناه المجازي أو الكلام الذي يتطاير فوق ندوف الثلج كلما أشرف على الذوبان والانصهار بهذا المعنى وبهذا المفهوم «الديناميكي»

تختلط وتشتعل الأوراق من جديد وتنفتح مناهج الروح الجميلة، وتنقشع السماء بسواد سحبها لتهبنا الخصب والنماء والماء عبر الصحراء القاحلة والملتحفة بكثبان الرمال والجبال. وعندما تكون الصورة بهذه اللوحة البانورامية - الشديدة الخيال والرومانسية معًا يكون مسار فعل الكتابة/ الثقافة، ويكون مسار الشعر/ الرواية/ المسرح يتأصل، من جديد على شكل جدارية متماسكة. ويبدأ مسار التحول من جديد في رسم لوحة أخرى أكثر صفاء كمياه اميل سيوران «المياه كلها بلون الغرق» أو كمذكرات جيفارا، أو رواية جاز لتوني مورسيون أو الطبل أو الصفيح لغنتر جراس، أو إنها لندن يا عزيزي لحنان الشيخ أو قصص التحول لجوجول وغيرهم. آه ما أجمل تلك الكتب أعني كتبي التي أحتفظ بها في مكتبتي والتي أراها بين فترتين صباحًا ومساء أو كلما شعرت بالفراغ أو الملل أراها تقف أمامي بألوانها الزاهية وعناوينها الكبيرة والجميلة. وعلى فكرة إنني أحتفظ بمكتبة صغيرة مكونة من عدة أرفف فقط إلا أنها تحتوي على ذخيرة من روائع الكتب: الشعر والروايات والدراسات وغيرها. ولكن رغم ذلك هل يساعدني الوقت على القراءة؟ أقصد هل الوقت يقف إلى جانبي؟ كل يوم في ظل الالتزامات / الشراء اليومي/ الوظيفة/ مكالمات الأصدقاء عبر هاتفي النقال. لا شك أنه عالم مكلف جدًا فهو إلى جانب تنوعه، غامض في تصرفاته مرهق حتى الثمالة حتى ولو كلف ذلك كأس نبيذ أو حتى كأس بيرة كي ترد الروح العطشى كل شيء كل

شيء في هذه الحياة بما في ذلك الجنس ومضاجعة امرأة، ليس مهمًا سعره أو مصدره لإعادة الحياة إلى الروح العطشى لكن كل ذلك الإبحار للوصول إلى معنى الحقيقة ولغز الحياة، يدخلنا إلى صميم موضوعنا عن التحول. لا بد إذن من عودة إلى موضوع التحول وكما يقول جوجول في إحدى قصصه الأنف: «علينا أن نعرف حين نفكر في الأمر أن هناك شيئًا ما وراء كل هذا. أليس كذلك؟!» ربما هناك شيء ما قد حدث أو قد يحدث. ربما يكون هذا الحدث واقعًا أو مجرد خيال. لكن يجب علينا أن نكون في مستوى الحدث. فكثيرون هم الذين يدفنون أنوفهم بمجرد لمحة أو نظرة عين. لأن الأنف هو إحدى حواس السمع أيضًا إلى جانب العين والأذن. فكل الحواس مهمة للإنسان حتى يستطيع أن يتعايش مع تنوع طقس الحياة، ومفاجآت المستقبل. ولا يوجد هنا جدل في الواقع ـ سواء نظرنا إلى الوضع في العراق أو فلسطين، أو أفغانستان، أو المشاهد السينمائية لصور السجناء العراقيين. فكل ذلك يأتي ضمن ثقافة التحول، لكن على الطريقة الأمريكية/ البريطانية أو «الكاوبوي» لكن رغم غلاسة الوضع وترديه ورغم هزيمة خطابينا العربي السياسي والإعلامي مرورًا بالهزائم المتتالية والنكسات لهذه الأمة وكان آخرها مؤتمر القمة العربية في تونس، التي كانت عبارة عن مسرحية هزلية تم إخراجها بامتياز تحت شعار «حضروا ولكنهم لم يتفقوا على شيء» إنها فعلًا ربما لو اختير لها فنان محترف من فناني الأغاني السريعة والفيديو كليب لأصبحت من أنجح الأغاني العربية

وربما فاقت في كلماتها أغنية «السلام عليكم» إذن ثقافة التحول موجودة باستمرار وليس مهمًا أن تكون مرتبطة بالمعنى الدلالي للثقافة أو بمفهومها الواسع. المهم أنها تؤدي الغرض المطلوب وفق الزمان والمكان المحددين ومن هنا في الواقع فإن فلسفة التحول ربما يكون لها أكثر من دلالة فهي تحول في معنى الحياة/ الكتابة، وتحول في تركيبة المجتمع أي هي بشكل عام، تحول في الذات الإنسانية لتحقيق المصالح كتلك المرتبطة بالثقافة والكتابة معًا.

ثقافة المشاريع السياسية ولغة العنف السائبة

على ضوء التحولات الثقافية والاجتماعية والسياسية التي أحدثها «مشروع الشرق الأوسط الكبير» المشروع الأمريكي كان لا بد وأن يظهر شيء من الجدل حول المشروع نتيجة التأثير والصدمة التي برزت بدورها إلى السطح، والتي تتنوع في طرحها وتوجهاتها. لكن عندما يأتي التحليل للواقع العربي ثقافيًا وسياسيًا وإعلاميًا واقتصاديًا واجتماعيًا لا بد من فرض لغة جديدة من شأنها أن تتعامل مع الواقع الجديد ويكون لها القدرة على مواجهة أي نوع من هذه الإفرازات المعلبة التي يحاول الساسة والمفكرون الهامشيون في أوروبا وأمريكا وعينة منهم في عالمنا العربي أن يسوقوا مثل هذه المشاريع والأفكار بقصد غربلة المبادئ والأفكار والنهوضية والتنويرية لدى الشعوب التي تطبعت على ثوابت راسخة من العادات والتقاليد المعروفة والروح الثورية الأصيلة التي كان لها دور في مسار الحداثة والتقدم. وهذا ما نلاحظه ونراه اليوم في الواقع، وتجنبًا للخوض في كل ما هو سياسي متعثر ومهزوم خصوصًا في عالمنا العربي، الذي أصبح يخاف من شبح اليهودية

والكيان الإسرائيلي. وهي التي كل يوم وأمام مرأى ومسمع منهم وعلى شاشات القنوات الفضائية المزينة بالألوان والإكسسوارات، تكيل شتى أنواع العذاب للشعب الفلسطيني، وكأنهم حيوانات سائبة «ولا يوجد من يحرك ساكنًا. وتطرح المشاريع الشرق أوسطية» وتترك «حرية العنف السائبة الإسرائيلية» هذا الوضع المتردي وهذه الصورة القاتمة، التي نشاهدها كل يوم في هذا العالم المسمى بالعالم العربي، يجعلنا نشك في عروبتنا ونتمسك أكثر بالخطب الإنشائية الرنانة لأنها هي السلوى في مواجهة الخطاب السياسي العربي المتعثر. وهي أيضًا أي الخطب ربما تكون المسار المضيء والمتوهج الذي يمكن من خلاله أن يضفي شيئًا من التأثير في هذا الواقع المهزوم. ليس هناك مجال أو أي تراجع للمضي قدمًا في فرض لغة الكتابة المؤثرة التي يمكنها أن توقظ النائمين من نومهم وتبعدهم عن الهزيمة التي أصبحت قاب قوسين أو أدني منذ احتلال بغداد وسقوط الحضارة الشامخة في العراق مرورًا بفرض التبعية بأنواعها وهي أمور واضحة للعيان ولا توجد حاجة لتفسيرها. كل ذلك بسبب الرضوخ العربي وعدم اتباع كل دولة عربية سياسة من شأنها أن ترتقي بمجتمعاتها وشعوبها سواء في توفير الحياة الكريمة لهذه الشعوب وحفزها ماديًا أو ما يتعلق بالتعليم والثقافة والتكافل الاجتماعي، وحمايته كمستهلك، وهي التي تملك أكبر الثروات. هذه السياسة المتعسفة، والقرية الإعلامية المتمثلة في حجب الحقائق وعدم وجود الحرية الكاملة في وسائل الإعلام والصحافة،

كل ذلك في الواقع له دور في التعنت الذي تبديه وتمارسه أمريكا وإسرائيل تجاه الدول العربية وشعوبها لطمس معالم ومظاهر العادات والتقاليد العربية الأصيلة. وعندما تصبح الأوراق مكشوفة بهذه الصورة لابد إذن من دور آخر لتصحيح ما يمكن تصحيحه، والمثقفون بمختلف أطيافهم مدعوون لتحليل ظاهرة الإخفاقات المتعثرة التي تمر بها الأمة من وقت لآخر في هذا الوقت بالذات وفي هذا العصر، الذي يفترض أن ترتفع فيه هامات العرب وترتقي إلى سلم المجد والرفعة والشموخ، إذ لا يوجد هناك وقت الآن لكتابة قصة حب لا للمقالات الإنشائية وإنما الاشتغال بما يدور خلف الكواليس في دهاليز السياسة الأمريكية، والمتمثل في مشروع «الشرق الأوسط الكبير» الذي يتلخص في النقاط التالية: «تغيرات ديمغرافية وفي نظم الحكم ورفع القيود المفروضة على حرية المرأة وتحرير التجارة والاقتصاد العربي والتقيد بقوانين منظمة التجارة الدولية، وإحداث تغييرات في نظم التعليم» هذه النقاط هي أبرز ما يتضمنه «مشروع الشرق الأوسط الكبير» المشروع الأمريكي الذي تمت الموافقة علية ضمنيًا من قبل بعض الدول وسوف يتم تنفيذه ضمن منهجية السياسة الأمريكية المعروفة والتناغم الذي ظهر منذ أحداث 11 سبتمبر 2001. وعندما نقول إن المثقفين والكتاب مدعوون أكثر من غيرهم لإعادة صياغة المشروع الثقافي العربي في ظل المتغيرات العالمية التي أصبحت ميدانًا سهلًا لطرح المشاريع والاملاءات خصوصًا في عالمنا العربي الذي أصبح أشبة بـ«أمة يتيمة» بعد انهيار

العراق دولة وحضارة وشعبًا والعرب يعرفون ذلك. بأن الوحدة والتكاتف والتآلف هي الطريق الصحيح في مواجهة القوى الامبريالية وأن تفككهم ليس من شأنه إلا الضياع والخراب. ولتصحيح هذا الوضع لا يمكن أن يتأتى إلا بالمنهج الحقيقي والواقعي الذي سيبدؤه الكتاب والمثقفون من الواقع المهزوم لهذه الأمة انتصارًا حقيقيًا يضيء بشموعه كلما أظلم الليل في وجه هذه الأمة وكما يقول صمويل هنتنغتون في كتابه صدام الحضارات: «قد يكون في العالم فوضى ولكنه ليس دون نظام بالكلية. وصورة فوضى عارمة بلا تمييز، تقدم لنا بعض المفاتيح لفهم العالم، من أجل ترتيب الأحداث وتقييم أهميتها، والتنبؤ باتجاهاتها المختلفة، لاستجلاء خطوط هادئة تساعد صانعي السياسة الرسميين» ولعل تسارع الأحداث بهذه الوتيرة، وطرح مثل هذه المشاريع وسط الفوضى الحاصلة الآن، ربما تساعد العقل على المزيد من التفكير، وفتح آفاق من شأنها أن تعيد ترتيب الأوراق من جديد بالنسبة إلى الدول النامية التي لا تعي ما يدور حولها من تطورات، إن تولي اهتمامًا أكبر بالمستقبل، يعتمد على الإصلاحات، وبناء مجتمعاتها بطريقة تمكنها من التكيف مع رياح التغيير الحاصلة الآن، وربما مشروع الشرق الأوسط، المشروع الأمريكي، واحد من هذه المشاريع التي تهدف إلى التغيير ليس على الصعيد السياسي وإنما على الصعيد الثقافي والاجتماعي أيضًا هذه المشاريع إذا وجدت طريقها بكل سهولة ويسر ربما ستشكل تحولًا آخر على الصعيد الثقافي والاجتماعي أيضًا وعلى

صعيد تحديث المجتمعات العربية من الداخل التي أصبحت أكثر تصدعًا يومًا بعد يوم. لكن عندما يأتي التغيير بالقوة من جهة خارجية فإن ذلك يدعو إلى التساؤل أكثر عن مدى إدراك العقل العربي لمفهوم التغيير من الخارج ونحن نتكىء على إرث من التاريخ والحضارة وبناء الدول.

علاقة الكاتب بالواقع
مدخل إلى لغة الصمت

في ظل الصمت الذي أصبح يخيم على الكتاب والمثقفين اليوم من الخليج إلى المحيط. لا بد والحال على ما هو عليه، إلا من إعادة رسم الواقع الثقافي. والتفجير الذي نقصده هنا ليس أشبة بما تتلفظ به وسائل الإعلام وترده بين فترة وأخرى، حول ما يعرف بأسلحة الدمار الشامل، والسيارات المفخخة أو المفاعلات النووية، أو طائرات الأباتشي التي تصنعها أمريكا وتجربها إسرائيل في الفلسطينيين أطفالًا ونساء أو كالتي تمارسها أمريكا نفسها التي تدعي الديمقراطية وحماية حقوق الإنسان والضعفاء في العالم، ضد العراقيين في الفلوجة وأنحاء واسعة في العراق، ليس هذا ما نعنيه وليس الذي نعنيه أيضًا أو نعتقده تحويل الإعلام العربي إلى تجارة مستترة وأخرى لتسويق الحروب والمجازر الإسرائيلية والأمريكية، بحق الشعوب البائسة والضعيفة. الشعوب الحرة التي تمتلك الروح الثورية الأصيلة والعزة والكرامة. ليس كل ذلك الذي نعنيه فالذي نعنيه ونقصده ـ عندما تتهمش الثقافة والذي نعنيه أيضًا عندما يبدأ المثقفون والمبدعون والمعنيون في الساحة وفي

هذه البقعة الممتدة من الماء إلى الماء في الجلوس خلف المحيطين والاكتفاء بالكتابات الإنشائية أو القصائد الفارغة والمديح والثناء في الكتاب. وكأنهم بعيدون عن الأحداث ـ بعيدون عن الواقع. هذا الوضع في الواقع وهذه الصورة البانورامية إذا ما استمرت على ما هو عليه لا يوجد هناك شيء ننتظره على صعيد تحريك المناخ الثقافي وفلسفة هذا المشروع النهضوي الذي يجب أن يكون متجددًا أو محضًا على الدوام، يؤسس لنهضة عربية جديدة كما كانت منذ بزوغها في الخمسينات والستينات. هذا المشروع النهضوي في الواقع لا يأتي إلا عن طريق ممارسة المبدعين حقوقهم المشروعة من خلال الكتابة بمختلف أنواعها وفتح المجال للحوارات والندوات من خلال المؤسسات الثقافية. لأن من شأن ذلك أن يعيد الزخم الإبداعي والصوت الإبداعي إلى مستوى الأحداث التي نعيشها. هكذا إذًا يتبلور المشروع الثقافي وهكذا يتأسس كيان الإبداع وهكذا يكون الصوت مؤثرًا. ونحن عندما نبدأ مساءلتنا هذه عبر الكتابة نعتقد بذلك أن الكتابة ربما تكون هي المتنفس الوحيد في ظل القوانين الصارمة ولوائح الممنوعات والمحرمات، لا شيء إذن يقف أمام الكتابة المشتعلة والمحرضة وهي تأخذ مسارها للارتقاء بالفعل والعقل وبالثقافة والفكر إلى المكانة التي ربما من شأنها أن تعطي صور مغايرة للواقع وصورة من شأنها أن تحرك الراكد الذي ظل يراوح مكانه وسط المستنقعات وبين فقاعات الصابون وعندما تصل هذه الأحداث إلى حد الاختناق وإلى حد الانهيار الكامل

للإنسان لا بد من إعادة النظر ولا بد من مجابهة حقيقية مع الآخر الذي كما يبدو لنا فارغ العقل فارغ المنطق لا بد من مجابهته ولا بد من إيقافه عند حده وكل ذلك يأتي عن طريق تأسيس اللغة والفكر المضادين ويأتي عن طريق فتح بلداننا للتنوع المعرفي والتكنولوجي وتطوير التعليم وفتح المجالات للاستفادة من المستثمرين والعلماء وغيرهم وفتح دور الثقافة من مكتبات ومؤسسات وغيرها ونحن عندما نتساءل عن الكيفية التي يجب أن تصاغ بها فلسفة المشروع النهضوي الثقافي، وتحريك المناخ أمام الكتاب والمثقفين حتى يستطيعوا أن يقوموا بواجبهم حيال الوضع الذي أصبح يتمايز بين السقوط والانهيار إنما نعني بذلك إعادة الوهج الثقافي بروحه المتدفقة واشتعاله الحقيقي هكذا إذن تتفاعل الشعوب مع واقعها المعيش وهكذا تتبلور الأمور التي ربما أصبحت بعيدة عن العين. وإلى حد العبثية المدمرة للعقل. هذا العقل الذي كان له دور في تفجير المعجزات والثورات العلمية والصناعية التي أصبحت تعم العالم اليوم. هذا العقل أيضًا الذي يستطيع أن يتحكم في الجوانب التي يمكن أن تقدم خدمات جليلة للبشرية ولها دور تنموي في مستقبل الشعوب. وليست مدمرة كالتي نراها ونشاهدها اليوم في أماكن كثيرة في العراق وفلسطين وسوريا ولبنان هذه الدول أو هذا المثلث الملتهب والدامي ما زال يشكل نسيجًا متكاملًا - نسيجًا يكتوي كل يوم بنيران القتل والعنف والدمار والخراب نيران تشتعل هنا وهناك وثقافة غربية ليس لها حدود. ثقافة متخلفة لا تعرف ما تريد لذلك أصبحت

تشكل اليوم خلايا ما يعرف (بالإرهاب) و(القاعدة) وكلها إفرازات تلك السياسات المتهورة التي تنتجها أمريكا وحلفاؤها. والمشهد العام يوضح الواقع فنحن أمامنا ثلاثة مشاهد، قضية فلسطين وغطرسة الكيان الصهيوني بحماية أمريكا واحتلال العراق وهذه المشاهد وتلك القضايا شكلت محورًا رئيسيًا لما يعرف اليوم بثقافة ولغة رغم فرضيتها حيال الوضع المتفجر والمشتعل في وقتنا الراهن. إلا أن كل ذلك لم يؤد إلى شيء، ثم جاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م المرتبطة بالتفجيرات الكبيرة التي هزت أمريكا في العمق وما أحدث ذلك من ردة فعل أمريكية عنيفة عسكرية وإعلامية وعقائدية، حتى وصل بها الأمر من قوة الصدام إلى إيجاد شعارات مثل (الحرب الصليبية) ومن معنا أو ضدنا وشعارات تحتوي على قائمة طويلة عريضة بخلاف التنظيرات والمؤلفات الهائلة والندوات والحوارات التي تجريها القنوات الفضائية مع المفكرين والتي تتحدث كلها عن الإرهاب وأحداث 11 سبتمبر إذًا وفي خضم كل ذلك ومن حيث التحليل للعنف المتبادل بين القوى الكبيرة بقيادة أمريكا ومن معها وبين الثورين المقاومين، نجد أن الوسيلة التي اتبعتها أمريكا تجاه هذه الأحداث هي وسيلة (سياسة الضربة الوقائية) أو ما يعرف بسياسة الاحتواء، بدل تحكيم العقل والمنطق ولغة الحوار التي تروض الأطراف وليست تعنفهم والجلوس حول طاولة واحدة لحل كل القضايا والأزمات في العالم. وهي سياسة خاطئة وسياسة لم تساعد على حل المشكلة

واقتلاعها من جذورها ليعم السلام أنحاء العالم. وإنما فتحت المجال على مصراعيه وفتحت المجال لتكوين ما يعرف اليوم بخلايا الإرهاب وأعطت المقاومين الشرعية لإعلاء صوت البندقية والعنف والعنف المضاد. ومن هنا في الواقع فإن ما نشاهده اليوم في منطقتنا وبالتحديد في العراق وفلسطين ـ والعراق الذي يمثل القوة والثقل العربي ثقافة وحضارة وعمقًا تاريخيًا، أصبح اليوم مستباحًا ومدمرًا وإلغاء المقومات المركزية للدولة وهو وضع إذا بقي على حاله سيشكل بؤرة ومستنقعًا لكثير من الدول المجاورة إذا لم يتدارك العرب هذه المشكلة وهذا البلاء المدمر الذي ربما يهدد الأمن العربي والمستقبل العربي برمته وكما يقول الشاعر:

لا خيل عندك تهديها ولا مالُ

فليسعد النطق إن لم تسعد الحالُ

المؤلف

- له مساهمات في الصحافة العمانية ومن ضمنها مقال أسبوعي في ملحق أشرعة الثقافي بجريدة الوطن.
- صدر له كتاب بعنوان حداثة الكتابة: مقالات ودراسات في طبعته الأولى عام 1997م، مطبعة الألوان مسقط.
- جبال الحجر، شعر، وزارة التراث والثقافة عام 2006م مسقط وتم ترجمة بعض القصائد إلى اللغة الاسبانية.
- لعيني ديالى، شعر، الجمعية العمانية للكتاب والأدباء، بيت الغشام للنشر والترجمة 2013م، مسقط.

تحت الطبع

- قراءة في الشعر والسرد في عمان.
- أوراق الربيع: مقالات في الربيع العربي.

محمد الرحبي مسقط